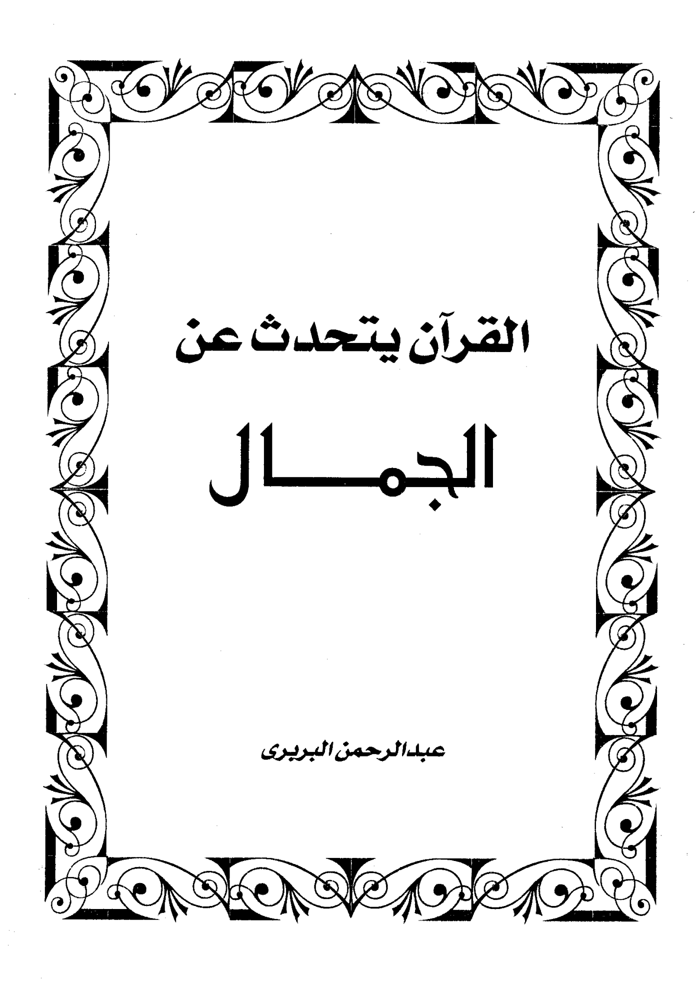




القرآن يتحدث عن

الجمـــال

عبدالرحمن البريرى

حقوق الطبع محفوظة

1421 هـ - 2001 م

* الكتـــاب : **القرآن يتحدث عن الجمال**
* الكـاتـب : **عبدالرحمن البربرى**
* الطبعـة : الأولى 2001.
* الناشر والتوزيع : **دار البشير للثقافة والعلوم - طنطا .**

تليفاكس : 3305538 - 3321744 / 040

☎ : 2120277 - 2120907 / 040

أصالة للتجارة والتسويق - الزقازيق

تليفاكس : 353988 / 055

* التجهيز الفنى : الندى للتجهيزات الفنية - المحلة الكبرى

تليفاكس : 2120277 / 040

* الإيداع القانونى : 1763 / 2001
* الترقيم الدولى : I . S . B. N 977 - 278 - 187 - 5

Web Site :www. albashir.com.eg

E-mail:albashira@compu-castle.com.eg

مقدمة

لقد تأذَّنَ ربك أن يعرض علينا الجمال فى كتابه الكريم، فكان العرض شائقاً، وكانت الصورة جميلة أيما جمال!

وفاض القرآن فى ذلك فيضه المكنون، وصار الجمال لُبّه وجوهره، وسره وروحه.. فهو كتاب جمال وبهاء.

وحين قصدتُ الجمالَ فى القرآن، ورأيتنى فى معرض قد تعددت لوحاته، وتنوعت ألوانه.. تسرَّحت بى الإبداعات من لوحة إلى لوّحة، ومن صورة إلى صورة، فأحاطنى الإبهار من كل صوب، ولزمنى الإعجاب من كل جانب، وأخذنى الافتتان بعيداً جدَّ بعيد!

فهذه لوحة عن السماء وزينتها، وتلك عن الأرض وجناتها، وأخرى عن الطير صافات فى جو السماء!

وهناك صور آسرة عن نعيم الجنة وبهائها، وعن الإنسان وقد خلقه الله فى أحسن تقويم.

لقد كان حشداً من الصور والظلال، والألوان والأشكال، وكان الإبداع هناك.. لا تحسب دون فوقه فوقاً، ولا بعد كماله كمالاً!

ويقف المرء مشدوهاً وهو يتابع لوحات الجمال فى القرآن، وهى مبثوثة هنا وهناك، فيظل واقفاً أمامها فى غير ما رغبة فى الانتهاء!

ومن الناس من يرى الجمال نافلة، أو يعده من لهو الحياة!

وهؤلاء قد أشربوا فى قلوبهم الجمود، أو كانت كالحجارة أو أشد قسوة!

فلم يأت على البشرية حين قد استقبحت فيه الجمال، أو لعنته كما يُلعن الشيطان!

إن الله سبحانه قصد الجمال في كل شيء، وقد بثه في تضاعيف الكون، ثم دعانا أن ننظر إلى قدرته في ذلك، وأن نتأمل ونتدبر.

بيد أنه جمال الحلال، وبهاء القصد والاعتدال، في غير شطط أو مغالاة.

فنحن الذين آمنوا أولى الناس بالإحساس بهذا الجمال، فترق قلوبنا، وترهف نفوسنا، ويزداد إيماننا بإبداع الخالق وقدرته الباهرة!

عبد الرحمن البريري

﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾

ولعل نقطة البُداءة أن نعرض هذه اللوحة الجمالية كما جاءت في القرآن الكريم:

قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

تبدأ هذه اللوحة الجمالية بمشهد أخّاذ، وهو لحظة انفلاق الحبة وهي في الثرى، حين يشق برعمها الأول ظلمات الأرض، وهي أشبه ما تكون بظلمات الرحم؛ بل هي رحم حقيق!

فإذا صادفك هذا المشهد ألفيت هذا البرعم وهو يحاول كي يخرج، ويجاهد كي يشق طريقه إلى النور.. يبرز رأسه شيئاً فشيئاً، بعد أن دبَّت فيه الروح، وبعد أن أذن الله له بالخروج. فهو خَلْق جديد، له بداية وله نهاية كسائر المخلوقات جميعاً:

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[2].

هذه الحبة تحاكي جنين الإنسان سواء بسواء.. نفس الطريقة، وذات المحاولة،

(1) الأنعام من الآية 95 إلى الآية 99.
(2) الأنعام آية 59.

ونفس الإعسار . . بيد أن هذا البرعم الصغير أول ما يتفتق، وأول ما يخرج، وأول ما ينفرج يهتز قليلاً . . كأنه يبش لهذه الحياة الجديدة، فلا يبكى كما يبكى جنين الإنسان. فالأول يعرف طريقه، ويعرف كيف يسبح؟! وكيف يسجد؟!

﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾(1).

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾(2).

أما جنين الإنسان فإنه يبكى؛ لأن هناك تكليفاً ينتظره، وأمانة قد أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها . .

وهذه اللحظة التى تتفتق فيها الحبة هى لحظة إعجاز، ولحظة إبداع كذلك. فهى تتحول من الموت إلى الحياة، ومن السكون إلى الحركة، ومن الجمود إلى النمو والازدهار!

هى لحظة واحدة، وتكتسب هذه الحبة الميتة كل صفات الحياة، وتتحول فيها إلى شيئ أخر . . إلى مخلوق ينبض بالحياة!

هذه اللحظة هى المعجزة، وهى السر الذى لا يقدر بشر مهما أوتى من العلم تفسيره أو الإحاطة بكنهه وماهيته!

هذا السر متصل بقدرة خارقة، ومشيئة مطلقة . . هذا السر لا يودع فى تلك الحبة الصماء صدفة أو فلتة . . هذا السر وهذا الإبداع وهذا الإعجاز له تفسير واحد، وجواب لا معدى عنه . . إنه الله الخالق القادر الذى يقول للشيئ: كن فيكون:

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾(3).

ثم تتحدث الآيات عن انفلاق أخر:

(1) الرحمن آية 6.
(2) الإسراء آية 44.
(3) الأنعام آية 95.

﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾(1).

وتتشابه الحبة وهي تشق ظلام الثرى بالإصباح وهو يشق ظلام الليل، فكان اللفظ فيهما واحداً:

﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾.

﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ﴾.

فالحبة عند خروجها تكسو الأرض الهامدة زينة وبهجة ونوراً، وكذا الإصباح عند خروجه!

وإن نظرة مبصرة إلى الصبح وهو يتسرب رويداً رويداً، ويسري بلطف وتؤدة، كأنه ضيف لا يرغب في إزعاجنا، فهو يمشي إلينا على استحياء، ويأتي إلينا على مهل، ويدخل دنيانا بعد أن يستأذن مرات ومرات!

إخالك فزعاً إن دخل هذا الصباح علينا فجأة، وإخالك ممتعضاً لو بدأ والشمس في كبد السماء.. بيد أنها تطل علينا إطلالة عذراء في خدرها؛ فترسل أشعتها الأولى ندية خاشعة، ثم تأخذ في الاشتداد رويداً رويداً، كأنها لحن رتيب الإيقاع، وئيد الخطى، رقيق الشجى، عذب الكلمات!

وهي كذلك عند رحيلها، فتأخذك إلى الليل القادم في أنس واسترواح، فلا تشعر حينها بوحشة، ولا تحس وقتها بامتعاض!

وهناك اختراق ثالث للظلام، ولكنه هذه المرة في السماء، حيث النجوم يهتدي بها الناس في ظلمات البر والبحر:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ

(1) الأنعام آية 96.

لقوم يعلمون﴾[1].

ومنظر النجوم في السماء جميل كل الجمال، وبهيٌ كل البهاء.. قد تفرقت هنا وهناك.. تتلألأ كالدرر، وتضيء كالمصابيح، وتلتمع بالأنس والسكينة، وتزدان بالخشوع والطمأنينة، وتهب السماءَ وقت الليل سحراً وجمالاً، وتمنحها زينة فاتنة، وحُسناً دونه كل حُسن!

وكما أن الأرض تحتضن الحب والنوى إلى أجل، فإنها تحتضن أجسادنا إلى أجل، أو نحيا على ترابها إلي أجل، فنحن في هذه الحالة بين مستقر ومستودع:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾[2].

وسواء أكان المقصود بالمستقر والمستودع أرحام الأمهات أم أرحام الأرض، وما يتبع ذلك من حياة ومماة أو ظهور وخفاء، فإن الجو العام يتسق وانفلاق الحبة بعد استتارها، وبزوغ النجوم وغيابها، وانبلاج الصبح وظلام الليل، مما أضفى على هذه اللوحة الجمالية حركة الغدو والرواح، والنور والظلام، والحياة والفناء، والظهور والمواراة، والتجدد والاندثار، والابتداء والانتهاء.. فكان التقابل بارعاً، والاتساق باهراً!

ثم تنتقل الآيات إلى مشهد خاص، وإلى لوحة أخرى أشد خصباً، وأعمق تفصيلاً:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[3]

وبين ماء السماء والأرض سر، ونَسَب وصِهْر، وعروة لا انفصام لها، وآصرة خاصة جدّ خاصة!

---

(1) الأنعام آية 97.

(2) الأنعام آية 98.

(3) الأنعام آية 99.

فما يلبث المطر ينزل حتى يحدث هذا التحول اللافت للأرض :

﴿ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾[1] .

نعم . . اهتزت اهتزازاً حقيقياً ، واستقبلته استقبال اللاهف ، وبشَّت لقدومه وهشَّت . . كأم تستقبل وليدها ، أو ثكلى قد أبصرت غائبها ، فسرت في عروقها كل معاني الحياة ، ونبضت بأقوى نبضات العطاء ، وازيَّنت وأخذت زخرفها ، وراحت تهتز طرباً ، وتميل فرحاً ، بعد أن كانت خاشعة لا عطاء لها ، أو هامدة لا حراك لها !

ويستمر المطر في النزول من السماء ، ثم يهدأ قليلاً ، وينقطع رويداً رويداً ؛ ليعم الكون بعض الهدوء ، الذي يسبق هذه المعجزة الخارقة ؛ معجزة انفلاق الحب ، وبزوغ النبات ، ونفجأ حينها باخضرار الأرض . . كل الأرض :

﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً ﴾ .

هكذا دفعة واحدة . . صارت الأرض القاحلة خضراء ناضرة ، وغدت معطاءة ، فهي لا تعرف إلى الشُح سبيلاً ، ولا تقبض يدها عن البر أبداً . . ففيها نبات كل شيء ؛ ليأكل منه الإنسان والطير والحيوان ، وفيها بركات لا يعرف حصرها إلا الله سبحانه .

ويستمر الاخضرار أمامنا ؛ حتى يتراءى لنا أزهار وثمار وحبوب أشكال وألوان :

﴿ نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ﴾ .

وإنك لتعجب وأنت تبصر هذا الحب المتراكب ، كيف تشكل ؟ ! وكيف انتظم ؟ ! وكيف خرج في هذه الصورة الجميلة الرائعة ؟ !

أطلقْ بصرك ليشهد هذا المنظر المديد من سنابل القمح والذرة والأرز . إنه مشهد خصيب ، وإنها لوحة باهرة . . وإنه عطاء ربك المنَّان ، وقدرته المطلقة ، ومشيئته التي لا حدود لها !

---

(1) الحج آية 5 .

وهناك متراكب آخر. إنه ثمر النخيل حين تتدلى عناقيد قريبة التناول، وهناك بساتين الأعناب، وكذا الزيتون والرمان:

﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ (1) وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾.

ولا نستطيع أن نملك أنفسنا حين ندخل هذه البساتين وتلك الجنات، فنجد ألسنتنا من تلقاء نفسها تسبح ربها، ونجد أعيننا شاخصة شاردة، قد أصابها الإبهار، وأحاط بها الإعجاب من كل جانب، فلا تقدر حينها على ملاحقة الجمال أمامها.. فهذه نخلة باسقة لها طلع نضيد، وتلك أخرى قصيرة قد التصق عنقودها بالأرض.. وهذه صنوان وأخرى غير صنوان.. وهناك جنات من أعناب قد اكتظت بالعناقيد التي تطالها يدك بيسر وسهولة.. قد تعددت ألوانها، وتباينت أشكالها، وحَلَتْ طعومها، فاشتهتها كل نفس، وطلبها كل إنسان!

يعجب الإنسان وهو يتقلب بين هذا الجمال، ويقف مشدوهاً وهو يتأمل هذا الإبداع.. كيف انتظمت هذه العناقيد من النخيل والأعناب، وكيف أخذت هذا الشكل الآسر، وكيف اكتسبت هذه الطعوم اللذيذة الفاتنة؟!

حاولْ أن تعرف سر ذلك، وحاولْ أن تبحث وتغوص في كل بحث، وارجعْ إلى كل مظنة من مظان العلم والمعرفة، وفكرْ قليلاً أو كثيراً، وابذلْ غاية الجهد في التحري والتقصي، وكنْ في ذلك فرداً دون جماعات التشويش، أو مثنى دون صخب أو ضجيج!

لن تصل إلى شيىء مما يقوله الغافلون، ولن تصل إلى إضلال أو تضليل.. بل ستقودك فطرتك السليمة إلى ما يقوله المؤمنون الصادقون، وسيأخذك عقلك إلى يقين اليقين، وإلى حقه كذلك وجوهره!

لن تصل إلا إلى شيئ واحد، ولن تطلع إلا على حقيقة واحدة.. أن وراء هذا

---

(1) قنوان جمع قِنو وهو عنقود النخلة. دانية أي قريبة التناول.

الإبداع اللافت، وذاك الجمال الساحر، وهذا الحُسن الباهر . . أن وراء هذا كله قدرة مطلقة؛ هي قدرة الله الواحد!

ثم تأتي هذه اللفتة العجيبة القاهرة :

﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾[1] .

تطلعوا إلى ثمره، وتابعوا مراحل تكوينه وتخليقه، وكيف يتقلب من طور إلى طور، ومن لون إلى لون، ومن طعم إلى طعم، ومن حجم إلى حجم؟!

إنها أطوار متعاقبة، ومراحل متتابعة، يكون آخرها الطعم اللذيذ والرائحة الذكية، وكذلك الصورة الجميلة .

وإنْ تَعْجَبْ فَعَجَب أنْ تظل الشجرة ومعها ثمرها بلا طعم مقبول أو مذاق مستساغ . . وتظل أنت ترقبها وتطالعها وهي تكبر شيئاً فشيئاً، وتتغير حيناً بعد حين، حتى يحين أجل نضجها وحلاوتها . . يحين هكذا فجأة، وهي التي ظلت طويلاً ثماراً مرَّة لا طعم لها ولا مذاق!

كأن الله سبحانه قد وقَّتَ لها وقتاً، وضرب لها موعداً، وأعطى لها إشارة البدء، وأذن لها أن تطيب وتحلو!

وهذه حقيقة، فكل شيئ عنده بمقدار . . غير أنك تشعر كأن هذه الحلاوة التي اكتسبتها هذه الثمار قد نزلت للتو من السماء، فها هي بالأمس كانت تنضح مرارة وعلقماً وملوحة، وها هي الآن تمتلئ حلاوة، وتفيض طلاوة، وتزدان حُسناً وجمالاً!

شيء عجيب حقاً، ولوحة جميلة تعرض كل آن، تتراءى أمامنا صباح مساء، ولكننا لا ننظر إليها نظرة تدبر واعتبار، ولا نتملى من جمالها الأخَّاذ، وهو يروح علينا بكرة وعشياً!

لذا كان الأمر بالنظر إلى هذا الثمر إذا أثمر ونضج :

---

(1) ينعه : نضجه .

﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ .

فهي لحظة فريدة، تتجلى فيها القدرة الإلهية، فتمنح هذا الإنسان فرصة للتدبر والتفكر، وتهب له وقتاً للأنس والاستمتاع، وتأخذه إلى عالم الثمار وهي ناضجة قد تدلت من ثقلها الأغصان، وتنوعت الألوان والأشكال، وتعددت الروائح والطعوم والمذاقات . . تأخذه إلى هذا العالم الجميل الساحر . . عالم تتلاحق فيه صور البهاء، وتتابع فيه لوحات الإبداع، وتحاصرك الأدلة هناك . . كلها ينطق بوجود إله عظيم، وخالق مبدع، قد وسع جمال صنعه السموات والأرض!

وهذه القدرة الخارقة في الزروع والثمار، وهذا الإبداع في طعمها ومذاقها، وهذا الجمال الفاتن في شكلها ولونها . . كل ذلك يدعو إلى الإيمان :

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .

﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا ﴾

لقد تحدثت قصة يوسف عن الجمال عينه، وبسطت القول فى الحُسْن كل بسط. وما وُجد جمال إلا ومعه حب، وما كان حُسْن إلا كان له عشق وغرام!

وغدت السورة التى تحكى هذه القصة مأوى الأفئدة حين تُفْعم بالحب، ومغدى المشاعر حين تَنْعم بالجمال، ومراح العواطف إذ ترق فتصفو، أو تشف فتسمو، أو تنهل من فيض الإيمان ما تشاء.. فلا يسعها الكون آنئذ على اتساعه، ولا يهرمها الدهرُ حينئذ على امتداده.. بل تستوعب هذه العواطفُ المؤمنة كلَّ عدو وصديق، وكل بعيد وقريب، وكل غائب وحاضر، وكل غاد ورائح.. وتستعلى استعلاء خاصاً، وتقترب من الحب الإلهى الذى وسع فيضه السموات والأرض، وقد ترى حينها ما لا ترى، وقد تقول مالا نقول:

فليتك تحلو والحـــياة مريرة   وليتك ترضى والأنام غضــاب

وليت الذى بينى وبينك عامر   وبينى وبين العالمين خـــراب

إذا صح منك الود فالكل هين   وكل الذى فوق التراب تراب

غير أن يعقوب عليه السلام كان مُحباً من الطراز الأول، وكان مخلصاً فى حبه أيما إخلاص، ولم يوار ذاك الحب لحظة، ولم يقدر أن يكتمه أو يخفيه..

وكيف لذاك الشيخ الجليل أن يوارى ميله وحبه لفتى فى جمال يوسف وبهائه؟!

إن الأب ـ من فطرته ـ يحب ولده، وقد يراه أجمل مولود، أو أحسن موجود، ويُخفى ذاك الحبُّ كلَّ عيب وإن كان بارزاً، ويستر كلَّ ذميم وإن كان ساطعاً كالشمس وضحاها.

ولكن يوسف لا عيب فيه ولا مذمة، ولا قبح فيه ولا سوأة.. بل كله جمال فى جمال، وحسن فى حسن، وبهاء على بهاء.. فهو لم يكن فتى عادياً؛ بل شاء

ربه أن ينهل من الجمال ما شاء له أن ينهل، وأن يغترف من الحسن والبهاء ما شاء له أن يغترف. . فكيف لا يبوح يعقوب بحبه وتعلقه؟! وقد قرَّبه الأبعدون، واختصه الأشراف والملوك، وأحبه كل من رآه، ومال إليه كل من نظر إليه. . فلا لوم على أحد إنْ فضله، ولا جناح عليه إن قرَّبه؛ لأنه حالة من الجمال خاصة جدّ خاصة!

كان البدء مع الشمس والقمر والكواكب. . هذه كانت رؤياه:

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾(1).

كان البدء جمالاً، فلم يرَ شيئاً آخر؛ بل عناصر الجمال في هذا الكون: الشمس والقمر والكواكب. . ولم يكن الأمر صدفة حين أراه الله هذه الرؤيا بالذات؛ كان من الممكن أن تكون رموزاً أخرى غير هذه الرموز الجمالية التي نراها في هذا الكون الرحيب. . غير أن الجمال يُقصد في هذه السورة قصداً، ويسري في كل خطوة من خطواتها، ويدخل في نسيجها ويتغلغل كل تغلغل؛ فنراها سورة الجمال وحده، أوسورة الحُسْن وحده. . أو نراها أحاسيس مرهفة وعواطف جياشة. . كأنها قد طُبعت بذاك كله، أو هي كل ذاك!

لقد كان حب يعقوب ليوسف واضحاً، فقد أحس إخوة يوسف ذلك وتأكدوا:

﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾(2).

بيد أنهم يحبونه أيضاً. كيف ذاك وهم مقبلون على الخلاص منه؟!

انظر هذا التردد في حديثهم:

﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾(3).

---

(1) يوسف آية 4. (2) يوسف آية 4. (3) يوسف آية 9

قد انتابتهم حالة من التردد والحيرة عبرتْ عنه «أو»، وقد عجزوا عن حسم الموقف سريعاً، فهم يهدفون إلى إبعاده عن وجه أبيه، على أن يستردوا شيئاً من الحب الذى ذهب كله إلى يوسف وأخيه، وفى ذات الوقت يضعون فى اعتبارهم عدم إيذائه، فكان هذا الإعلان الواضح عن حبهم له:

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾[1].

لا تقتلوا يوسف.. لا تقتلوا هذا الجمال.. لا تغتالوا هذا الصفاء.. لا تُريقوا دماً قد طَهُر.. لا تُطفئوا نوراً قد أضاء.. لا تُؤذوا جسداً قد جَمُل.. لا تُعطلوا قلباً قد أناب..

لا تقتلوه.. فنحن نحبه، ولا نقوى على موته.. ولكنْ أبعدوه من هنا.. أبعدوه دون أذى، وغَيِّبوه دون هلاك. ليكن فى غيابة الجب [2].. هناك يلتقطه بعض المارَّة.. فمثل يوسف لا يُتْرك إن رآه أحد، ولا يُضام إن أخذه أحد.

لا تجعلوه ينفرد بحب ذاك الشيخ دوننا. كأننا نافلة، وكأننا عالة على هذا الحب الذى ينعم فيه يوسف ليل نهار!

هنا كان الحب والحسد؛ فهم يحبون أخاهم ولكن يحسدونه، فتصارع الحب والحسد فى قلوبهم، وانتصر الحسد فى النهاية، فألقوه فى غيابة الجب.

والحسد يُعمى، والحب يُعمى، ولكن عمى الحسد أشد وأقوى، كما أن حب يوسف لا عمى فيه ولا ضلالة!

وعند استئذانهم أباهم كى يخرج يوسف معهم - وقد دبروا أمراً وأخفوا سراً - كان الحب يفيض من رده وكلماته:

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾[3].

---

(1) يوسف آية 10.
(2) غيابة الجب: قعر البئر وأسفله.
(3) يوسف آية 13.

فهو يحتاط له كل حيطة، ويرضى له كل حفظ ونجاة، وهكذا شأن المحبين مع من يحبون.

كأن يوسف جوهرة يأبى أن تفلت من يده.. وكأنه لؤلؤة لا يرضى لها خدشاً أو مساً.. كأنه شيئ خاص به.. كأنه حبه الأول والأخير.. كأنه الابن الوحيد.. كأنه درة وهو حارسها، أو نور دونه كل نور!

فأنى يذهبوا به، فيبتعد عنه ويغيب، يحزنه ذلك أشد الحزن. كما أنه يخاف عليه من الذئب، فهو يتوقع غفلتهم عنه، ويتوقع إهمالهم وقلة احتفالهم، فهم يأبون خصوصيته، ويرفضون تفرده وتميزه، وهو يعلم منهم ذلك.

قد نفذوا خطتهم، وألقوه في غيابة الجب، لتمر جماعة من الناس، وقد أرسلوا أحدهم يستقي لهم، فإذا به يجد يوسف هناك.. في قاع البئر:

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ [1] فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ [2] فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ [3] قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [4].

تأملْ هذه الجملة العفوية التي نطق بها الرجل حين رأى يوسف:

﴿يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ﴾

لقد تمثل «البشرى» وهي شيء معنوي غير محسوس.. تمثلها بشراً سوياً، وإنساناً حاضراً أمامه، وراح يناديها.. راح ينادي «البشرى».. يناديها كي ترى معه هذا الحُسن، وتشهد ذاك الجمال، وتأنس بهذا البهاء..

قد أنطقه جمالُ يوسف، وأدهشه طَلّتُه الندية، وأبهره طلعتُه البهيَّة، وهاله نورُه الوضيء، وأخذه هذا البدرُ المشرف صباح مساء!

---

(1) سيارة: قوم مسافرون.
(2) أي أرسلوا من يستقي لهم الماء.
(3) أي أرسل دلوه في البئر.
(4) يوسف آية 19.

نطق الرجل الساقي بجملته تلك بلا وعي، وقالها فيض الخاطر وعفو الساعة.. ثم قال: هذا غلام.. هذا غلام مختلف.. له جمال خاص، وحُسن بالغ، ووضاءة لا نراها في سائر الغلمان!

إنه خَلْق الله.. وإنها صنعته.. حين تتجلى، وتصور هذا الإنسان، وتجعله في أحسن صورة:

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾(1).

وانتقل يوسف إلى بيت العزيز في مصر.. فكان الاحتفاء به بالغاً، والاهتمام به على قدم وساق:

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(2).

أكرمي مثواه.. لا تكرمي ذاته فقط، أو شخصه فقط.. بل أكرمي المكان الذي يحتويه، والأرض التي يجلس عليها، والحيز الذي يشغله، والمثوى الذي يأوي إليه..

إنه احتفاء خاص، نبع من حب حادث، وتفضيل من الوهلة الأولى، مما جعله يفكر أن يتخذه ولداً.. وفي هذا اصطفاء واختصاص.

ولما بلغ أشده أراد الله له نوعاً من الكمال.. لا نقول الكمال كله؛ فالكمال الكامل لله وحده، ولكنه نوع من الكمال؛ فأضاف إلى جمال خلقته العلم والفقه والنبوة:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (3).

---

(1) الانفطار الآيات 8,7,6.
(2) يوسف آية 21.
(3) يوسف آية 22.

وأمام هذا الجمال الآسر وذاك البهاء الآخذ . . لم تصمد امرأة العزيز طويلاً، ولم تقدر على كتمان حبها وعشقها، فوقعت في المحظور، ووقعت أيضاً فيما لا يقع فيه نساء الحب عادة؛ فأقبلت على تصرفات استثنائية تحاكي ذاك الجمال الاستثنائي . . تحاكيه ولكن دون تبرئة لها أو معافاة .

فراودته عن نفسه، وطلبته تصريحاً لا تلميحاً، وكاشفته دون خجل، وراحت تخطو نحو التنفيذ دون تريث، وغدت تتحرك كمجنون لفَّه دوار الحب والافتتان، أو صريع قد قتله العشق والغرام!

ولكنها هيأت أسباب اللقاء، واستعدتْ غاية الاستعداد، وتجهزت بعدما تزينت، وألحت بعدما أصرت، وزين لها الشيطان غايتها، ورسم لها طريقها، وخالت نفسها قادرة على قهر هذا الفتى، وتصورت أنه ملكها وحدها، وما هو بمملوك لأحد!

لقد أحبته وما أحبها، وعشقته وما أرادها، وشغفها حباً وما شغفته شيئاً، وغوته بكل سبل الغواية وما هو من الغواية بقريب . . بل بعيد . . جدّ بعيد!

إنه الحرام قد رأته، وإنه العفاف قد تشبث به . . وإنه إبليس قد سلمته زمامها ووهبته قيادها، وإنه الاعتصام بحبل الله قد خلَّصه ونجَّاه؛ فلم يقع فيما يقع فيه كثير من الناس :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾(1) .

وأمام هذه الفتنة العارمة، وذاك الابتلاء المبين، تدخلت البشريةُ التي تخالط الخلق جميعاً، وتنفست بعض أنفاسها التي لا يقدر بشر على ردها في مثل هذه المواقف القاهرة؛ فكان الهم وحده دون شيء آخر :

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ

(1) يوسف آية 23 .

إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾[1].

كان من الممكن أن يحول الله بين يوسف وبين هذا الهم؛ فهو سبحانه يحول بين المرء وقلبه، فيخرج من هذه الفتنة بلا هَم أو خاطر.

وكان من الممكن أيضاً أن يُعرض عن ذكر ذلك الهَمْ وتسجيله في هذا القرآن الخالد..

ولكنها «البشرية» يريد الله إثباتها لرسله دائماً؛ فيتطلع الناس إليهم بلا عناء، ويقتربون منهم بلا تكلف، ويقدرون على التعايش معهم دون أن يشعروا بفوقية لا يستطيعون الوصول إليها، أو ملائكيَّة لا يمكن تحقيقها في دنيا الناس بأي حال من الأحوال.

وحين يضبط عزيز مصر فعلة امرأته، فتلصق التهمة بيوسف بلا اكتراث أو تجمل، يتطلب الأمر إحضار شاهد. ولكن لماذا الشاهد؟ أليست هي سيدة عزيزة في قومها وهو فتى لا وزن له عندهم ولا اعتبار؟! أليس كلامها لا يُرد وكلامه يُؤخذ منه ويُرد؟!

إنه جمال يوسف الذي يفيض من وجهه، وإنها الأمانة التي يتحلى بها، والتقوى التي يتزين بها.. كل ذلك جعله موضع تصديق، وجعل كلام هذه السيدة في محل شك.. فكان الشاهد، وكانت براءة يوسف:

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾[2].

---

(1) يوسف آية 24.

(2) يوسف من الآية 25 إلى الآية 29.

ووصل الخبر أنحاء المدينة، وجال فيها وطاف، وتأذَّت امرأة العزيز حين خاض الناس في سيرتها، وغاظها النسوة وهن يفتأنَ يذكرن شغفها بذلك الفتى، وهنَّ لم يشاهدن جماله بعد، ولا حسنه قبل.. فكان هذا الاستعراض الذي أرادته امرأة العزيز، حين أرسلت إليهن، وأعتدت لهن متكأ، وقدمت لهن طعاماً، وآتت كل واحدة منهن سكيناً:

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾[1].

وكأنْ قد أرادت أن تستعرض أمامهن - وهن في هذه الحالة من الأنس والاسترواح - جمال يوسف وبهاءه، وهي متأكدة كل تأكيد من افتتانهن وإعجابهن.

وخرج عليهن يوسف فخرجن عن شعورهن، وبهتن، وأُصبن بحالة من الغياب والشرود، وغلب عليهن الدُّوار والخُمار، وأعجبن أيما إعجاب، وأجللن قدر جماله كل إجلال، وانشغلن عن كل شيء؛ فلم يشعرن بألم السكين وهي تجرح أيديهن. فقد كان جماله سحراً أذهب بعقولهن، وكانت طلعته نوراً على نور، وكانت هَلَّتُه عليهن كالقمر عند تمامه، أو النجم الساطع عند ضيائه، أو الضحى الرائق عند اعتداله..

فلما رأينه نطقن بهذه الجُمَل العفوية التي تنم عن افتتان خاص، وإعجاب قد تخطى الحدود:

حاشَ لله.

ما هذا بشراً.

إن هذا إلا ملك كريم.

(1) يوسف الآيتان 31,30.

ما هذا بشراً . . فلا اعتادت أعيننا هذا الجمال، ولا رأت ذاك الحُسن، ولا شاهدت هذا البهاء. إنه جمال خاص، وحُسن شاذ، وبهاء فريد. . لا نراه على بشر، ولا ينبع من إنسان. . إنه ملك؛ وملك كريم!

ما هذا بشراً. . فلا يعقل أن يكون بشراً. كأنْ قد أتى من عليين، أو هبط على قصر العزيز من جنات النعيم، أو أنه قد أخطأ طريقه وضل سبيله، فلم يستطع العودة إلى مكانه السامي هناك. .

ما هذا بشراً. . فهو إنسان آخر. . قد زينه جمالُ الظاهر، وسما به صفاءُ الباطن، فجمع بين الحق والجمال، والخير والبهاء، والحُسن والفلاح، فكان جميلاً في كل شيء، وكان فريداً في ظاهره وباطنه؛ فانتسب عند الوصف بالملائكة، واتصل عند المدح بالملأ الأعلى إذ يسبحون ربهم ويسجدون!

وانقلب كل شيء في هذه القصة؛ فالتغزل غدا في حق الفتى، وهو في حق النساء أولى، والعشق صار في حُسنه، وهو في حُسن النساء أحرى. . وأصبح مطلوباً، وأصبح لدى امرأة العزيز أشد طلباً، فأعلنت على الملأ عزمها وقصدها، وخرجت عن كل مألوف حين هددت إن لم يفعل ما تريد:

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1].

ويدخل يوسف السجن، ويمكث فيه ما يمكث، ويرى الملك رؤيا عجيبة، لا يستطيع تأويلها غير يوسف، فيطلب الملكُ اصطفاءه:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ....

(1) يوسف الآيات 34,33,32.

فلما مثل بين يديه كانت هذه الجملة التي نبعت من قلب الملك بلا تكلف :
. . . ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾(1) .

هكذا مرة واحدة . . من السجن إلى اصطفاء الملك ، ومن الاتهام الباطل إلى البراءة المطلقة ، ومن الشدة والضيق إلى الرخاء والسعة ، ومن الشتات والخمول إلى التمكين والاحتفاء !

وهكذا يُضفي الملك على يوسف كل أنواع التكريم ، ويمنحه كل اعتناء واختصاص ، وهو للتوّ قد رآه ، وهو ـ اللحظة ـ قد لاقاه ، وهو ـ بلا مقدمات أو اختبارات ـ يُقربه كل تقريب ، ويصطفيه أيما اصطفاء .

إنك اليوم لدينا مكين أمين . . يقولها الملك عفو الساعة وفيض الخاطر . . يقولها بلا تحفظ ، ويؤكدها بكل أنواع التأكيد ، لا تردد فيها ولا إشكال !

كأنّ الملك يعرفه من زمن بعيد ، وكأنه الشيء المفقود الذي يبحث عنه ، وكأنه قد أحبه من النظرة الأولى . . ومَن ذا الذي لا يحب يوسف حين يراه ؟ !

وهنا يطلب يوسف ويشترط بعد أن قدّم له الملك كل هذا الرضا :

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾(2) .

فيجمع يوسف بين ثلاث يندر اجتماعها في آن :

العلم والحكمة - الحُسن والجمال - المُلك والتمكين .

وتمر القصة في طريقها ، وتتلاحق أحداثها ، ويفقد «يعقوب» ابنه الثاني «بنيامين» ، ويبلغ به الوجد مبلغه ، ويتروي وقد نطق بهذه الكلمة اللاهفة ، وتلك الجملة التي تقطر حزناً وأسى :

﴿ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾(3) .

---

(1) يوسف آية 54 .
(2) يوسف آية 55 .
(3) يوسف آية 84 .

هنا ينادي الأسف، بعد أن ألفه واعتاده، ويخاطب الحزن بعد أن صحبه طويلاً وعافه . .

قد فرغ من كل أسف عرفه الإنسان، وها هو الآن يطلب أسفاً جديداً، ويحتاج إلى مدد آخر . . فقد حزنَ كل حزن، وامتلأ قلبه بكل أسى، وتألم واشتكى، ولكن إلى ربه وحده:

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

ثم يطلب منهم أن يبحثوا عن يوسف وأخيه، فيستخدم لفظ «التحسس»، وهو لفظ كله رقة ولين، وعطف وجمال:

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾[2].

تحسسوا بكل رفق، وابحثوا بكل إخلاص، واستعينوا في ذلك بالله . .

تحسسوا ذلك الجمال؛ فهو لا محالة محفوظ، واطلبوا ذلك الحُسن؛ فهو لابد موجود، وابذلوا كل جهد؛ فهو يستحق كل الجهود! وحين تتصل الأرواح وتتلاقى، وحين تقترب وتمتزج، وحين يلفها حب شفيف، ومودة خالصة، ورضا عميم . .

حينها تتوحد . . وتستعلي . . وترفرف . . وتلتقي بلا اعتبار لهذا الجسد الفاني، وتتخاطب بلا غموض أو التباس، وتتخطى حواجز الزمان والمكان، بعد أن تخلصت من ملابسات الطين، وتجردت من وشائج الأرض، فكان لها هذا التحليق السامي، وهذه الشفافية الوضيئة، فتشعر بذات الشعور؛ فتفرح أو تحزن، وتطمئن أو تقلق، وترتاح أو تتعب . . رغم بُعد المسافات وافتراق الأجساد . .

(1) يوسف الآيتان 86,85.
(2) يوسف آية 87.

فيرتسم أمامها ما لا تراه العيون، ويتراءى لها ما تشعر به القلوب؛ وهو شعور لا يخيب ولا يحيد!

ولقد كان هذا مع «يعقوب» عليه السلام؛ حين توحدت روحه مع ابنه الغائب، فيجد ريح يوسف.. نعم. ريحه ولا شيء آخر.. فريح يوسف تكفي.. تكفي لأن تردّ الروحَ إلى عافيتها وسابق عهدها.. تكفي من ذاك الحبيب الرضي البهي!

يجد رائحة يوسف ويشمها رغم الغياب الطويل، ورغم المسافات السحيقة.. يجدها فيأنس بها، ويخاطبها كأنها لم تغب عنه لحظة واحدة إنه التقاء الأرواح وتوحدها:

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ﴾[1].

ويأتي البشير، ويطرح قميص يوسف على وجه يعقوب، فيرتد بصيراً:

﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً..﴾[2].

إنها الرؤية البصرية تتحقق؛ فهي هامة في قصة الجمال، فلا تكمل النعمة دون رؤية بهاء يوسف، ولا طعم لعودته إلى أبيه دون أن يتملاه، وخاصة أنه قد حُرم منه سنوات وسنوات!

وعند التأمل في هذه القصة الفريدة نلحظ أن جلَّ مشاهدها يصب في عين الحُسن والجمال، وأن غالب أحداثها يرمز إلى الأنس والاسترواح:

1- فالرؤيا التى رآها يوسف بدءاً كان رموزها الشمس والقمر والكواكب دون رموز أخرى؛ حتى يتسق ذلك وعنصر الجمال البارز في القصة.

كما أن رؤيا أحد الفتيين في السجن، وهو يعصر خمراً، تصب في الإطار نفسه!

فلماذا كانت الخمر رمزاً للنجاة؟! ألم تكن هناك رموز عديدة تبشر بخروجه

(1) يوسف آية 94.
(2) يوسف آية 96.

من ظلمات السجن إلى ساحات الملك؟! ألم تفسر رؤياه تلك بما يزيد هذا الإطار قوة؟! فهو يسقي ربه خمراً، وحين يسقي ربه خمراً يكون الحب والهوى، ويكون الجمال كذلك؛ ولكن على طريقة أهل الضلال، وهم كانوا كذلك!

غير أن القرآن المعجز أراد أن تتسق خطوات هذه القصة اتساقاً دقيقاً وبارعاً، وأن ترتسم لوحتها في تناسق غير مسبوق ولا ملحوق؛ فتتوزع على رقعتها كل مشاهد الحب والهوى أو الجمال والفتنة، كما حدثت على أرض الواقع دون خيالات أو شطوط!

وموضوع القصة هو جمال يوسف وفتنة النساء، وهو حياة القصور وما يحدث فيها، وهو الملك والجاه والسلطان.

وفي هذا الجو تستعر الشهوات، وتتصارع النزوات، وتصطخب أهواء النفس، وتعربد الفتنة كل عربدة، ويتحكم الهوى أيما تحكم!

وأراد القرآن أن يبرز هذا الجو من خلال مشاهد القصة كلها وأرادت المشيئة الإلهية أن يتسق هذا الجو اتساقاً، وأن يلتئم التئاماً، فكانت الرموز كلها حول الحب والجمال والهوى والفتنة، وكانت الرؤيا هي عصب هذه القصة، وكانت معجزة يوسف تعبيرها[1]، وما كانت الرؤى والأحلام إلا هواجس الليل، وهواتف الخيال لدى العاشقين وأصحاب الهوى.. أو صدق الإلهام، وطيف النبوة لدى المؤمنين الصادقين!

أراد القرآن أن يبرزهذا الجو فكانت هذه الرؤى التي هي مغدى المحبين ومراحهم، وكانت الشمس والقمر والكواكب في رؤيا يوسف، أو الخمر في رؤيا أحد الفتيين، أو الطعام وتخزينه في رؤيا الملك.. وكلها رموز تتناسب وموضوع القصة من جمال وفتنة وهوى، وكلها تُحقق الاتساقَ الفريد بين خيوط القصة جميعها!

---

(1) تعبير الرؤيا: تفسيرها.

2- وتماشياً مع موضوع القصة وجوِّها العام كان للمرأة فيها دور بارز، وحديث فائض، وتحليل عميق.

عبَّرت ألفاظ هذه القصة عن تصارع العواطف، وغلبة الغرائز، وجموح المشاعر، وانفلات الشهوات.. عبَّرت عن كل هذا بلا تحفظ، وبسطت فيه القول بلا إيجاز.. ورأينا كيف أبدعت وهي تصور هذا اللقاء المحتدم بين يوسف وامرأة العزيز؟! وكيف تحركت الشهوة الإنسانية بين المد والجزر، والتفلُّت والتحفظ، والتهور والتمنُّع ؟!

فهي قد انفلت منها الزمام، وهو قد استعصم بربه غاية الاعتصام.. هي تطلب وهو يهرب.. هى تشد قميصه وتجذب، وهو يلوذ بالفرار ويفلت..

وهي تهمُّ هَمّاً عظيماً تؤيده الأقوال والأفعال، وهو يهمُ هَمَّ الخاطر.. همَّ الشهوة المتغلغلة داخل كل إنسان، وهو إنسان.. غير أنه غالب شهوته، وسيطر عليها، وفي الأخير هزمها، واستعلى كل استعلاء، وضرب المثل الأعلى للصمود!

نعم.. الصمود أمام الأعداء؛ من النفس والهوى والشهوة ومعهم إبليس اللعين!

عبرت ألفاظ القرآن عن كل هذا بلا تحفظ، وأطنبت في عرضه وبسطت، وبيَّنت لنا هذا الصراع بين الحق والباطل، وفصَّلت هذه المعركة بين الحلال والحرام، ولكن في مجال الشهوات وفتنة النساء.

فهذه امرأة العزيز تصارع من أجل شهوتها، وهذا يوسف الصدّيق يصارع من أجل عفته وأمانته!

وهؤلاء النسوة قد بُهتن بجمال يوسف، وتخلين عن كل تحفُّظ، ورحن يتغزلن فى حسنه وبهائه، ووقعن فيما وقعت فيه امرأة العزيز، وأصبحن كلهن يطلبن يوسف؛ مما جعل الفتنة ترفع رأسها، وتمد لهيبها، وتبرز مخالبها، ويشتعل أوارها.. فبلغ الصراع أوجه، بيدأن الكلمة الأخيرة كانت للحق، وهي كذلك

حين نميز بين شهوة وشهوة، وحلال وحرام، وطاعة ومعصية، وعبادة وخطيئة . . وحين لا نضعف أو نذل . . وحين لا نستجيب لنداء الشيطان!

إن الابتلاءات التي مر بها يوسف كانت ذات صلة بالحب والنساء:

فإخوته رموه في غيابة الجُب؛ من أجل الحب الكبير الذي منحه أبوهم ليوسف كاملاً دون نقصان!

وحين دخل قصر العزيز بدأ صراعه مع المرأة، فكان الابتلاء الأقوى، والاختبار الأصعب، وكان هناك الإيمان أيضاً الذي انتصر في هذه المعركة التي لا تجاريها معارك السيوف، وحروب الجيوش الهالكة!

3- ومن اللافت أن «القميص» كان رمزاً واضحاً في مادة القصة ومحورها؛ فقد ذُكر في مواقف عدة:

﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ (1).

﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ (2).

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾(3).

ولماذا كان «القميص» بالذات عنصراً بارزاً في القصة؟! أكان هذا من باب المصادفة؟! فلا يجد إخوة يوسف غير قميصه قد لطخوه بدم كذب ليدللوا على براءتهم!

ولا يجد الشاهد سوى القميص، والقميص وحده ليكون دليلاً على أيهما الطالب وأيهما المطلوب!

---

(1) يوسف آية 18.

(2) يوسف الآيات 27,26، 28.

(3) يوسف آية 93.

ولا يجد يوسف إلا قميصه دون أي شيء آخر من متعلقاته ليكون سبباً بإذن الله في عودة أبيه بصيراً!

إنها ليست مصادفة ألبتة؛ بل كان «القميص» رمزاً مقصوداً كل قصد!

إنه «القميص» رمز الثياب. وإنها القصة تتحدث عن الفتنة والجمال.. وبين الأمرين صلة وقربى!

فالثوب اللافت يُحدث فتنة، واللباس الحسن يبرز جمالاً.. و«القميص» وحده هو الرمز المناسب لجو هذه القصة، حين يكون التناسق دقيقاً، والاتساق بارعاً، كما هو الأمر في كل شؤون القرآن.

4 - وكما تكرر ذكر «القميص» تكرر لفظ «فتى»:

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[1].

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾[2].

﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[3].

وكما أن «القميص» رَمَزَ إلى الثياب، وهي من مستلزمات الجمال، وضرورات الحُسن والبهاء.. فإن «الفتى» هو أنسب ذِكْراً، وأليق تكراراً في جو كله حب وفتنة وغرام!

وهذه الرموز التي تكلمنا عنها أو غيرها أضفت على القصة تكاملاً باهراً، وترابطاً دقيقاً، وغدت من خلالها لُحمة واحدة، ومثلاً محكماً وفذاً في سرد الأحداث، وتسلسل مجرياتها.

---

(1) يوسف آية 30.
(2) يوسف آية 36.
(3) يوسف آية 62.

فكل كلمة، وكل رمز، وكل مشهد، وكل صورة من صورها تخدم الهدف الرئيسي، وتتسق مع الجو العام اتساقاً لافتاً ومعجزاً!

ولستَ واجداً ذاك في قصص البشر، ولستَ واجداً ذاك في غير القرآن!

5- ونال «الطعام والشراب» مساحة وسيعة في هذه القصة:

* ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ [1]وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [2].

* ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ..﴾[3].

* وحين دعت امرأة العزيز النسوة، كان الطعام هناك، وفي يد كل واحدة منهن سكيناً:

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ...﴾ [4].

* ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [5].

* ورؤيا الملك، ما كانت إلا عن الطعام وكذا تفسيرها.

* وما كانت رحلات إخوة يوسف المضنية إلا من أجل توفير هذاالطعام.

ألا يناسب هذا التكرار لأمرالطعام والشراب، جو القصة العام؟!

فالمرء حين يحصل على طعامه وشرابه، وحين يملأ بطنه ومعدته، فإنه يفكر في شهوته ونزوته، وينتشر للحب والهوى والنساء، ويعيش حالة من الأنس والاسترواح، لا تجدها في ذاك الجائع المحروم!

(1) يرتع: يأكل ما يشاء في سعة ورغد.
(2) يوسف آية 12.
(3) يوسف آية 19.
(4) يوسف آية 31.
(5)يوسف الآيتان 37,36.

هكذا قصة يوسف تمتلئ اتساقاً، وتفيض إبداعاً، وتزدان حكمة، وتضم جناحيها على مشاهد الجمال كلها، وصور الحُسن جميعها، فتعيش معها حالة من الرضا والقبول والأنس والحبور، والسمو والسموق. . كأنها أنسام من الجنة قد رفَّت، أو نفخة من الملأ الأعلى قد هبت. فهي مما تأنس به النفس، وتسكن وتطمئن . . . فتشف وترق، وتعلو وتسمو ،لتتنفس هنالك، وتنال قسطاً من الشفافية قد لا تجدها على وجه هذه الأرض أبداً!

وهكذا يوسف قبلة الجمال، وجماع الحُسن والبهاء، ومدار الحب والعطاء!

يتراءى لنا في مشاهد كثيرة. . فنرقبه وهو في غيابة الجب نوراً يتلألأ؛ فبُهت الذي رآه هناك، ودهش وحار!

ويتراءى لنا في هذه اللفتة اللافتة، والعجب العاجب، والسر الغائب. . وهو يخرج على هؤلاء النسوة. . كأنه يخرج عليهن الآن، وكأن الحدث يقع اللحظة. . فنضع أيدينا على صدورنا. . نرقب النور الذي سيهل، والبهاء الذي سيعم. فإذا هنَّ قد فقدن الوعي كله، وفقدن الشعوركله؛ إلا الشعور بجمال ذاك الفتى البهي، ورحن يقطعن أيديهن بدلاً من الفاكهة؛ فالبدل والمبدل منه في هذه الحالة سواء. .

نرقب هذا التصرف الآن، ونطَّلع إلى وجوههن وعليها أمارات الإعجاب، وعلامات الافتتان. . فنسمع قولتهن العفوية التي خرجت بلا تصنُّع أو إعداد:

حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ!!!

﴿والطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾

انظر إلى السماء فوقك . . هنالك قمر حالم . . قد تقاصرت الألباب فى نعته، فهو جمال حقيقى بالتأمل، وهو البهاء نفسه!

ارجع البصر . . هنالك نجوم قد تناثرت . . قد ازدانت السماءُ بها وازينت، وقد رسمت لوحة يتيه أولوا الحُسن في وصفها أو ملاحقتها!

ارجع البصر . . بيد هذه المرة والسماء صافية . فقد تصادفك لوحة أخرى أشد تأثيراً، وأكثر تيهاً!

فهذه اللوحة لا تستغرق حين تمر سوى لحظة، ولكنها لحظة الجمال؛ كل الجمال!

أرأيت هذا السرب من الطير، وهو قابض أجنحته حيناً، أو باسطها أحايين أخرى:

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾(1).

مشهد مكرور في القرآن، وهو مشهد جديد من مشاهد الجمال:

﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(2).

لوحة آسرة . . تأخذك بعيداً إلى علٍ، حيث السماء على رحابتها، وحيث الصفاء والبهاء!

من الجائز أن تكون حينها جالساً بين الأشجار، أو سارحاً مع غنيماتك في مرابضها . .

---

(1) الملك آية 19 .

(2) النحل آية 79 .

أو تكون سائراً وحدك تتفكر، أو سائراً مع آخرين. .

من الجائز أن تكون في أي من هذه الحالات. . ثم تلتفت فجأة، ولكن إلى السماء. . هناك تشرئبُّ تتأمل هذه اللوحة الفاتنة. .

لوحة هذه الطيور وهي تسير معاً، في نظام عجيب، وتلاحم بديع. . وفي خفة لافتة، وسرعة خاطفة!

تسير وقد بسطت أجنحتها، فهي سعيدة بهذا الفضاء المديد، وهي أيضاً في سماء ربها تطير!

تعلو حيناً، وتهبط حيناً. . كأنها تستأثر بالحرية والطلاقة، وكأنها مالئة يدها من عون الله ومدده، وهي مالئة كذلك؛ فهو الذي يُمسكها أن تقع على الأرض.

ويثيرك ذاك القبض لأجنحتها أنها تتحدى بني الإنسان، وهو عاجز عن التحليق والطيران، وكأنها تستعرض قدرتها التي من قدرة الله قد انبثقت، وكأنها تقول شيئاً أو تفعل أمراً!

إنها تقول شيئاً لا ريب فيه، وتفعل أمراً لا شك فيه. . إنها تسبح وتصلي:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾(1).

قد علم الله صلاة هذه الطيور وتسبيحها، فهي تقوم بما يجب عليها من الشكر والحمد، وهي تعرف غايتها دون ضلال، وتعرف كيف تعبد ربها وكيف تسجد؟!

هي تسبح في فضائها تسبيحاً يفوق تسبيحنا، وتصلي صلاة قد تكون أخشع من صلاتنا!

هي قد اهتدتْ وانتهى أمر هدايتها، وهي قد تُقُبِّلَتْ ونالت ثوابها، وهي في الأخير قد ارتاح بالها وطاب خاطرها. . فلم لا تحلِّق هذا التحليق؟! ولمَ لا ترتفع

---

(1) النور آية 41.

هذا الارتفاع ؟! ولمَ لا يكون مكانها فوق رؤوس الأشهاد؟!

لم تَشْقَ في رزقها كما شقى الإنسان، ولم تضل الطريق كما ضل، ولم تتفلَّتْ من واجبها كما تفلَّت . . بل جاءها رزقها رغداً من كل مكان، ولم تُخطئ الطريق يوماً ما، وقامت بواجبها فلم تَستثقل منه ساعة من ليل أو نهار!

وكما هي تمدنا بمسحة من الجمال حين تنطلق في فضائها، في جمع لافت وسرعة خاطفة دونما نصب أو كلال . .

ها هي تمدنا بمسحة من الخشوع والإنابة، وها هي مجموعة إلى داود (عليه السلام) تُسبّح وتؤوب:

﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾[1].

﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾[2].

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾[3].

لقد خشعت هذه الطيور مع الجبال وأنابت . . . فقد راق لها صوت داود وتسبيحه، وأعجبها جمال صوته وترنيمه، فمنحتنا الجمال كله، وجمعت بين باطنه وظاهره، وبين سره وعلانيته، وبين جسده وروحه!

فهي جميلة حين خشعت وأنابت، وهي جميلة كذلك حين بسطت أجنحتها وطارت، وهي جميلة حين تقبضها في جو السماء ما يمسكها إلا الله !

(1) ص الآيات 19,18,17 .
(2) سبأ آية 10 .
(3) الأنبياء آية 79 .

﴿ تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾

الجمال هذه المرة عن الأنعام (الإبل والبقر والأغنام)، وهو الجمال الذي نصَّ عليه القرآن صراحة:

﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

وإنْ تَعْجَبْ فعَجَبٌ أن يكون الجمال وصفاً أصيلاً في هذه الأنعام!

ولكن لا عجب ولا غرابة!

فابدأ من ذاك الذي بدأت به سور القرآن، وتَسَرَّحْ رويداً هناك، وتأملْ المشهد قبل طيه، واستروحْ أرج الزينة والجمال، وارجع البصر كرتين.. إلى تلك الصفرة الفاقع لونها.. إنها تسرُّ الناظرين.. ثم تدبّر هذا الوصف المديد لهذه البقرة العجيبة:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ۝٦٧ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ۝٦٨ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ۝٦٩ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ۝٧٠ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾[2].

(1) النحل الآيات 7,6,5.
(2) البقرة من الآية 67 إلى الآية 71.

أرأيت حيواناً نال من الوصف ما نالته هذه البقرة في القرآن؟! إنه وصف شامل لهذا النوع من الأنعام!

وما ذاك على البقرة بكثير! فهي التي تبهرك وداعتُها، ويبْهجك صبرُها وحلمها، ويفتنك لونُها وشكلها!

لا تغضب إن أغضبتها، ولا تزمجر إن أتعبتها.. وتصبر كأن الصبر قد نبع منها، وترضى كأن الرضا قد فاض منها.. لا تعرف سوى العطاء؛ فهي تتحرث وهي تلد، وهي التى منها لبناً خالصاً سائغاً للشاربين..

حتي في مشيتها وديعة هادئة، وفي نظرتها مطمئنة آمنة.. كأنها خُلقت لتصاحب ذاك الإنسان، وكأنها وُجدت لتخدمه وتعطيه بلا حساب!

إنها صفراء ذهبية.. وإنها تسر الناظرين.. وإنها زينة الأنعام.. فاستحقت أن تكون اسماً للسورة الكبرى في القرآن!

ومن الأنعام الإبل.. تلك السفينة التي صاحبت العربي في صحرائه القاحلة.. وهذه النعمة التي أظلته في مكان لا ظل فيه ولا أنسام، وحملته في وقت لا تقدر على حمله كل الدواب، وأعطته دونما كلل أو ملال، وسارت معه في واد غير ذي زرع ولا ماء!

وإذا أردت جمال هذه الإبل فاذهبْ إلى مسارحها.. هنالك في الصحراء وسط الرمال حين تتكشف أمامك السماء؛ كل السماء!

هنالك تتضاءل ضخامة هذه الجمال وتلك النوق، وتراها زينة وبهاء، وتبصرها وهي تتهادى وسط هذا الامتدَاد الرهيب، وهي تغوص بخفها اللافت الجاذب.. تغوص وكأنها تمشي على ماء لا رمال دونما نصب أو إجهاد!

وما يعجبك فيها وهي سائرة تلك العنق المديدة قد بالغت في إطالتها؛ فهي إذاً واثقة في قدرتها وتحملها، وهي إذاً تتحدى كل هذه الصحراء بصعابها ومخاوفها!

إنها معجزة من معجزات الله.. فإذا أردت أن تعرف كيف خُلقت؟ فارجعْ إلى

كل مظنة من مظان العلم، وتفحصْ كتب السابقين واللاحقين، ستعرف حينها كيف هي عظيمة من العظائم، وكيف هي عجيبة من العجائب، وستعرف كيف خُلقت؟

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[1].

إنها خُلقت جميلة جدّ جميلة، قد تناسق كل عضو من أعضائها مع هذه البيئة الصفراء..

فهي تبهرك حين تمشي، وتبهرك كذلك حين ترد الماء، وتبهرك حتى وهي تبرك..

وهي في الحالات جميعاً كأن هذه الصحراء ملكها وحدها لا ينازعها فيها أحد، فالعلاقة بين الإبل وصحرائها ذات خصوصية، وذات أسرار!

وتجمل الصورة حين تجتمع مع الأغنام.. فهذه إبل شامخة.. وتلك غُنيمات تغدو وتروح.. تختلف أشكالها، وتزهو ألوانها، وتتنوع حجومها..

يعجبك منها كثرتها حيناً، ويسحرك القطيع منها أحايين أخرى!

قد لزمتْ راعيها، فلا تبرح مكانها، فهي مسخرة، وهي مخلصة إخلاصاً لا يعرفه كثير من الناس؛ ترضى إن ذَبحتَها، وتهدأ إن حلبتَها.. إنه التسخير الكامل.. وإنها النعم التي لا تُعد ولا تحصى!

هذه هي الصورة الجميلة لتلك الأنعام، وما زال الإنسان وهو يسكن ناطحات السحاب يستمتع بهذا الجمال، ويستلذ بهذا البهاء؛ فهذه الجلود، وتلك الأصواف يزدان بها كلُّ غادٍ ورائح، وكل قاصٍ ودانٍ!

(1) الغاشية آية 17.

وما زالت هذه الأنعام رمز العطاء؛ لكثرة منافعها، وما زالت كذلك جميلة، فكانت مما زُين للناس في هذه الحياة:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[1].

(1) آل عمران آية 14.

﴿ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾

ونعرض اللوحة الجمالية كما رسمها القرآن أولاً :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾(1) .

وتبدأ الآية الأولى بالتفات بالغ، وفيه يتحول الحديث من الغيبة : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ إلى التكلم : ﴿فَأَخْرَجْنَا ..﴾ ؛ لتحدث الهزة التي تُعيد الانتباه، واليقظة التي تضمن الحضور والإنصات . . فتفيق قوى الإدراك إن كانت غافلة، وتتجمع شوارد الفكر إن كانت سادرة . فالحدث معجز، واللوحة آسرة، والمنظر عجيب أيما إعجاب، والإبداع لا يقوى على فتنة جماله عقلُ بشرٍ أو طاقة إنسان!

تأملْ «فاء التعقيب» وضمير العظمة في قوله ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ ؛ لترى سلاسة الأمر، وطلاقة القدرة، وثقة الإرادة التي لا حدود لها ولا قيود . فالقدرة الإلهية يستوي عندها الصعب والسهل، والبعيد والقريب، والصغير والكبير، الكل أمامها قد صُبِغ بصبغة القانون الإلهي : كن فيكون .

ثم نأتي إلى اللوحة ذاتها، حيث عنصر «اللون» هو الظاهر الجلي، واختلاف درجاته هو اللافت الجاذب، فيتكرر ذلك ثلاث مرات :

«مختلفاً ألوانها» .

«مختلف ألوانها» .

«مختلفاً ألوانه» .

لقد كان القرآن وهو يرسم لوحة الكون تلك يريد الجمالَ ويطلبه، ويعرضه

(1) فاطر : الآيتان 28,27 .

أمام الناظرين ويبسطه؛ ليتدبروا ويتفكروا، بعد أن يَستقيلوا من أسر العادة ـ ولو ساعة ـ فيتعرفوا على هذا الشيء الخارق، والعجيبة الفاتنة، والسحر الذي لا يقوى على الصمود أمامه أقسى القلوب، وأبلد المشاعر!

إن تناسق الألوان في الثمرات أمر مشهود ومعلوم، قد نلتفت إليه أحياناً؛ فالجمال فيه بيِّن، والجاذبية فيه لا تعزب عن فطنة أحد. . غير أن المقصود من هذه اللوحة الفاتنة عرض الألوان كلها: في الثمرات، في الجبال، في الناس، في الدواب، في الأنعام. .

إنها التفاتة كلية، تتناول الألوان حين ننظر إلى الجبال الشامخة، أو نتأمل الثمار اليانعة، أو نتفحص من حولنا بني الإنسان. . حتى ونحن نسوق الأنعام، أو نغوص في عالم الدواب!

والألفة هي آفة النظر، وماحية التدبر والتفكر، وهي التي تغشى على أبصارنا، فلا نشعر بالجمال حين يتجلى أمامنا، ولا نحس بالإعجاب حيث الإبهار حولنا، ولا نتملى المشاهد المبثوثة هنا. . والمناظر المعروضة هناك.

ولو أننا تعرينا من لباس الألفة، وخلعنا ثوب العادة؛ لنبضت قلوبنا آنئذ بأقوى نبضات الرهف والإحساس، ولامتلأت إيماناً ويقيناً، ولفاضت حباً وخيراً وجمالاً.

إن هذه الألوان المتناثرة في تضاعيف الكون أجمل مما نتصور، وأبهى مما اعتدنا. . إنها ثوب قشيب يرتديه الكون، وحلة فاتنة يخلعها على نفسه صباح مساء، ولكننا غافلون كل غفلة، وبعيدون أي إبعاد. . والتصقنا كثيراً بهذه الطينة، ولم نقدر أن نخرج من عباءة المادة التي نتقوقع داخلها، فتقتلنا الأنفاس الخانقة، ويحيط بنا الضيق من كل جانب، ولا ننظر وقتها إلى سماء تمطر أو أرض تنبت. . ولا إلى ثمرات تتشكل وتتزين أو جبال تتلون وتتعدد. . وكأنْ قد أبينا أن نمد روحنا بمسحة من الجمال أو نسمة من الزينة والبهاء.

بيد أن الآيتين تبدأ بالحديث عن الثمرات واختلاف ألوانها. . وهنا أعرض عليك أمرين:

الأول: أنه إذا حزبك أمر فاهرع إلى حديقة ذات بهجة، مزدانة بالزهرات والثمرات. . وارفة الظلال، مديدة الجناب. . قدْ فاضت زينتُها فيضَها الزاخر، وفاحت أرائجُها على كل قاصٍ ودانٍ. . وغدت تعج بالأطايب والفواكه، وأضحت تَسحر كل غادٍ ورائحٍ!

الآنَ ادخلْها. . وقد نفضتَ عن كاهلك رتابة الحياة، وتخلّصتَ من الهموم والأحزان. . وعشْ هذه اللحظة. . عشْها مع بدائع الذي خَلَقَ، وعجائب الذي قدَّر وصَنَعَ، ومعجزات الذي صوَّرَ كل شيء فأحسن تصويره!

تَمَلَّ المشهدَ قبل طيه، وانتهزْ آنَ الهدوء قبل فوته، واسترو حْ أرج الثمار بين يديك، فارتشفْ من رحيقها، وانهلْ من معينها. . وكن وقتها فرداً بلا انشغال، لتتأمل لوحة الألوان. . تأملْها عن يمين وشمال، وكلها قد خرجت من طين وماء، غير أن الخالق قد زينها وصوَّرها وأبدع صنعها!

هذه هي الأغصان تتمايل، وقد أثقلتْ، كأنها أم قد حان وقت المخاض، وكأنها تهوي للسجود لله، بعد أن شَكَّلَ ألوانَها. . فهذه ثمرة حمراء، وتلك صفراء، وأخرى خضراء. . في تعدد لافت، واختلاف باهر. . قد تتشابه الألوان، ولكن لا تتطابق، فلستَ واجداً ثمرةً هي عين أختها، ولكنْ مشتبهاً وغير متشابه!

هل ترى في هذه الحديقة من تفاوت. . فارجعْ البصرَ هل ترى من خلل في ثمارها أو عيوب في ألوانها. . ثم ارجعْ البصر مرتين. . أو ثلاث. . أو حتى عشر. . دونما كللٍ أو مللٍ. . ينقلب إليك البصر وقد فاض عليه الحياءُ من كل جانب، وأحاط به الإعجاب من كل زاوية!

لا تستطيع عينك ملاحقة هذا الجمال، ولا يقوى فؤادك على تحمُّل ما يراه!

روحك الآن قد انتعشت. . كأنْ قد فاقت بعد إغفال، وثابت بعد شتات، فدبَّ الإيمان في كل حناياها، ونطقت بعظمة خالقها وبارئها.

حاولْ الآن أن تقطف ثمرة، وقربْها إلى فيك، سترى جمال الشكل وحلو الطعم قد اجتمعا، وستجد نشوةً تسري في كل قلبك وجسدك!

أما الأمر الثاني ففيه تكلفة وتضحية، وخاصة إن كنتَ من أواسط الناس مثلنا:

حاولْ أن تُخرج كل ما في جيبك من نقود، واذهبْ إلى السوق، واشتر ما تقدر عليه من ثمار الفاكهة، واجمعْ ما تستطيع من أنواعها. . ثم ارجعْ إلى بيتكَ، وانثرْها بين يديك، وتأملْ ألوانها وأشكالها، واستعرضْ تعددها وتنوعها، واسبحْ مع زينتها وبهائها، وتعرَّفَ من خلالها على عظمة الخالق البارئ المصور، وسبِّحْ باسم ربك الذي خلق فسوى.

لا أحد على وجه هذه الأرض مهما بلغ علمه يستطيع أن يفسر لنا سرَّ هذا الإنبات، وأن يقدم لنا أسباب هذه الألوان الباهرة، والطعوم الشهية، وكيف خرج كل هذا من طين واحد وماء واحد؟!

لن يستطيع العلم تفسير ذلك بأدواته التي بين يديه، ولن يستطيع بشر أن ينسب هذا الإعجاز الباهر إلا لرب قادر وإله عظيم!

ومثل الثمرات الجبال. . تختلف ألوانها، وتتعدد أشكالها: **﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾**.

إنه التقابل الباهر، والتناسق البديع. . فهذه ثمرات تتمايل مع تمايل أغصانها، وترق حيث النسيم يرق، وتفوح حيث شذاها يفوح، وتتناثر هنا وهناك في لوحة الكون الكبير. . وخلفها تقف الجبال شامخة لا تتزعزع، ثابتة لا تتحرك. . وهي ذات ألوان كذلك. . فهذه صخور بيضاء قد اختلفت درجات بياضها، وتلك حمر قد تفاوتت درجات حمرتها. . وهناك غرابيب سُود[1]، قد اشتد سوادها، وعَمَّتْ ظلمتُها.

ومثل الثمرات والجبال الناس. . فمنهم الأبيض الناصع البياض، والأسود القاتم السواد، وبينهما درجات ودرجات.

ولستَ واجداً إنساناً يتطابق مع آخر في شكله ولونه. . لا تحاولْ فلن تجد على

(1) غرابيب سود: شديدة السواد.

وجه هذه البسيطة حالة تماثل وتطابق . . حتى في الحالات الأشد تقارباً وتشابهاً تجد خيوطاً رفيعة تستطيع من خلالها التمييز بين هذا وذاك .

تخيلْ لو أن الله سبحانه خلق الناس على لون واحد، أو شكل واحد، أو جعلهم على نسخة واحدة . . كيف تكون الحياة ساعتئذ؟! وكيف يتم التعارف والتمايز؟! وأية فوضى ستعم الكون حينها؟! وأي خلل سيسود وقتها؟!

ثم اذهبْ معي بعيداً . . وتخيلْ أن الله سبحانه قد اختار للبشرية ألواناً غير التي هم عليها الآن . . فترى الأصفر الفاقع، أو الأحمر القانئ، أو الأزرق شديد الزرقة، أو الأخضر شديد الخضرة . . هل عندها سيكون هناك ود وقُرب، أو جمال وحُسْن؟! وهل سنكون بذات الوداعة التي نحن عليها الآن؟!

ومثل الثمرات والجبال والناس الأنعام . . وهي متفاوتة الألوان كذلك، ومثلها الدواب، حيث عالم من الألوان والأشكال لا حصر له ولا عد . . وكلها قد اختلفت في تناسق بديع، وتعددت في تكامل بارع .

إنها لوحة مديدة . . لوحة قد اشتملت عنصرَ اللون في هذا الكون الواسع . . قد لا يُدرك إعجازَها وإبداعها . . وقد لا يتَعرف على دقائقها وخفاياها . . وقد لا يَقْدر على الغوص في معالمها ومجاهلها . . وقد لا يَستطيع تخيلها أو الاقتراب منها . . قد لا يدرك ذلك إلا طائفة واحدة؛ إنها طائفة العلماء الذين يخشون ربهم حق خشيته، لما قد علموا من عظمة الإبداع، وجلال التصوير والإكمال :

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ .

﴿ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾

قد كانت النفس مطمئنة ، وكان الله هناك . . يناديها . . فيأخذ بيدها . . فقد رجعت إليه راضية مرضية . . وها هو سبحانه يفيض عليها من فيضه الزاخر ، ويسبغ عليها من رضوانه الغامر . . وها هو يُدخلها جنته :

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾[1] .

ونتطلع إلى هذا المشهد الآنس ـ ونحن ما نزال بعدُ على وجه هذه الأرض ـ نتطلع إليه كأنه حاضر حيالنا الآن ، فيأخذنا الخشوعُ ، وتنال منا الإنابة ما تشاء ، وتنهال علينا الأماني من كل صوب ، وكلنا يتمنى أن يكون هذه النفس !

قد خلع عليها رضوانه ، وأسبغ عليها نعماءَه ، ومنحها من وده ما يسع أرضه وسماءَه . .

ها هو سبحانه يُعرفها على عباده كأنها دون العالمين ، ويُدخلها جنته كأنه لم يكن هناك أحد سواها !

لا الملائكة تتولى ذاك ، ولا حتى روح القدس . . بل الذات العلية بنفسها هي التي تستقبل ، وهي التي تحتفي ، وهي التي تُعرفها على الصالحين ، وهي أيضاً تأخذ بيدها فتدخلها الجنة وتُطلعها على قصورها وأنهارها . .

هكذا يرتسم المشهد حيالي ، وهكذا أستشرف آفاقه ، وهكذا أخشع حين أقرأ هذه الآيات وأتمنى كذلك !

واللافت أن ينسب الله سبحانه هذه الجنة خاصة إلى نفسه . .

فهي نفس مطمئنة ، قد سلَّمتْ كل أمرها إلى ربها وفوَّضت كل شأنها إليه . . فلم تسخط ألبتة ، ولم تجزع قط ، ولم تفزع يوماً ، ولم تضعف . . قد اطمأنت إلى

(1) الفجر من الآية 27 إلى الآية 30 .

ربها كل اطمئنان، ورضيت بقدره كل رضا. . ثم منحتْ كلَّها إلى الذي خلقها. . فاستوت لديها السراء والضراء، وكذا التبر والتراب. . فازدادت طمأنينة ورضا، وكانت حياتها كلها لله.

ها هو يكافئها، ويُعد لها جنته، ويستقبلها بنفسه ويحتفي كذلك!

وإخالك الآن راضياً مطمئناً، غير أن القضية في دوام هذا الرضا وتلك الطمأنينة. . فهذه الديمومة هي التي توصلك إلى هذا الإحتفاء الخاص والاستقبال المهيب!

وإخالك كذلك قد تسرَّحتْ بك الخيالات في هذه الجنة التي صنعها الله على عينه!

بيد أن جنة الله قد جمعت كل أنواع الجمال، وحشدتْ داخلها صنوف الزينة ومتطلبات الحُسن والبهاء!

تأملْ هذه الآيات:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ. لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ. فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ. لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً. فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ. فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ. وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ. وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ. وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾[1].

ونحاول أن نستشرف أبعاد هذه الصورة الجميلة التي اختارها الله لجنته العالية. .

أراك تتملى معي هذه الوجوه الناعمة. . فهي ذات نضارة، وهي كذلك في جمال لافت وحُسن آسر!

وأنت في هذا البهاء قد جلست على سرر مرفوعة منسوجة بالذهب والدر والياقوت. . عليها الحور العين، وبجانبك هذه الأقداح مترعة بالشراب!

وأنت فوق ذلك لا تسمع ما يعكر هذا الجو اللطيف، أو ينغص هذا الأنس الشفيف!

(1) الغاشية من الآية 8 إلى الآية 16.

فاشربْ الآن من هذه الأقداح . . أو صاحبْ هذه الحورية . . أو استلذ بشتى الطعوم واللحوم . . أو اذهبْ إلى هذه العين الجارية فاجلسْ استمتعْ بالظلال الوارفة المديدة . .

إلا أن هناك وسائد قد صُفَّتْ بعضها بجانب بعض فاستندْ إليها، أو امش فوق هذه الزرابي فهي بسط فاخرة جدّ فاخرة!

استمتعْ فكل هذا النعيم لك، وكل هذا الجمال كذلك . . فالصورة التي اختارها الله لجنته بهية أيما بهاء!

ولكننا سنذهب إلى سورة الرحمن، حيث الصورة أكثر تفصيلاً، وأكمل جمالاً:

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾[1].

(1) الرحمن من الآية 46 إلى الآية 78.

ترنيمة أخرى من ترانيم القرآن الشجية، وترتيلة من تراتيله العظام!

فاللوحة الأولى خاصة بمن يخاف مقام ربه، وفيها من المشاهد ما يثير الجَنَان، وفيها من العجائب ما يفتن الأبصار!

فعلى جانبي الصورة أفنان باسقة، وأغصان ناضرة.. تتدلى منها قطوف دانية، إن شاء تناولها المؤمن قائماً أو قاعداً، وإن شاء تدلت إليه فيأكلها مضطجعاً!

وهل تكتمل صورة الأفنان والظلال دون عين جارية؟!

بيد أنهما عينان تجريان، ولجريان الماء متعة أخرى، لا تقدر النفس على فتنتها، ولا تستطيع ملاحقتها وهي تجاور هذه الأفنان وتلك الظلال!

وتتنوع صور الفاكهة على الأغصان، غير أن الإبهار في مشهد هذا المؤمن المتكئ على أريكته المحشوة من الحرير الغليظ، فكيف بظاهرها؟!

جالسٌ على أريكته تلك وجَنَى الجنتين دان، وثمر هذه الأفنان يتدلى شيئاً فشيئاً دون أن يُحرك ساكناً، ودون أن يجشم نفسه عنَاء القيام!

إنها صورة الجمال والارتياح، وإنها العطايا الربانية فامننْ أو أمسكْ بغير حساب!

وحين تكتمل عناصر الأنس والاسترواح، وبعد أن تتدلى الثمار فيأكل منها ما يشاء، وقبل أن يطلبهن.. يجد قاصرات الطرف قد أتين، فيرى الجمال نفسه، ويبصر الحُسن عينه، ويتملى ويتملى.. فإذا ياقوت أمامه ومرجان، ولكنهما اجتمعا على صورة حورية بهية كأحسن ما يكون البهاء، وفاتنة كل فتنة، وحيية أي حياء!

وعند طي هذه اللوحة لا تغيب روعتها عن بالنا، غير أن هناك لوحة أخرى لا تقل جمالاً، وقد تقل نعيماً وعطاء!

ويفتنك هذه الخضرة الشديدة التي ضربت إلى السواد، والتي تملأ جوانب الصورة كلها؛ فالجنتان مدهامتان، وفيهما عينان فوارتان، وفيهما فاكهة كذلك ونخل ورمان، وهناك وسائد خضر وعبقري حسان.

إلا أن جديد هذه اللوحة تلك الخيام المنتشرة هنا وهناك!

ماذا داخل هذه الخيام؟ وما المستور فيها؟ وماذا تُخبىء؟

إنها تخبىء الحور العين، وتستر النساء الحسان، فهن مقصورات فيها مصونات، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان!

هل هناك صورة تستهوي ذاك العربي من تلك؟!

فهذه خضرة ناضرة، وتلك عيون جارية.. وهذه فاكهة لا مقطوعة ولا ممنوعة، وتلك خيام بداخلها أبكار أطهار.. وفوق هذا وسائد خضر وعبقري حسان!

ليس هناك جمال فوق هذا، وليس هناك حُسن يفوق هذا الحُسن!

واللافت في القرآن اهتمامه بإبراز جمال الحور العين، وأنهن مطهرات:

﴿ ولَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

﴿ لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴾[2].

﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾[3].

﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴾[4].

﴿ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾[5].

﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾[6].

﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾[7].

﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ ﴾[8].

---

(1) البقرة آية 25.
(2) النساء آية 57.
(3) الصافات الآيتان 49,48
(4) ص آية 52.
(5) الدخان آية 54.
(6) الطور آية 20.
(7) الرحمن الآيات 56, 57, 58
(8) الرحمن من الآية 70 إلى الآية 74.

﴿ وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾[1].

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا (٣٥) جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴾[2].

والآيات السابقة تخلع على نساء الجنة صفات ثلاث :

(1) الطهارة . . فهن مطهرات من الحيض والنفاس وسائر الأقذار من غائط وبول ونخام وبزاق .

(2) العفة . . فهن قاصرات الطرف أي قصرن أعينهن فلا ينظرن إلى غير أزواجهن .

(3) الجمال . . فهن حور عين . وحُور جمع حوراء وهي البيضاء . وعين جمع عيناء وهي واسعة العينين . . وهن مثل اللؤلؤ المكنون أو الياقوت والمرجان . . وهن كواعب جمع كاعب وهي التي برز ثديها واستدار . . وهن كذلك أتراب أي في سن واحدة !

لقد كان هناك تفصيل لإبراز هذا الجمال ، وكان هناك بيان وتبيين :

فهذه العيون واسعة في عفة وجمال . . وهذه النواهد قد برزت واستدارت . . وهذه الأبدان في رقة ونعومة ونضارة . . وهذه الألوان قد اختير الأبيض دون سواه !

ويعجب المرء لهذا البيان في القرآن ، ولكن لا عجب ولا غرابة :

فهذه هي الجنة التي أعدها الله لعباده الصالحين ؛ قد أعدها بنفسه ، وصوَّرها بقدرته وإبداعه !

وهذا هو الجمال الذي أراده الله في كل شيء ، فكان تمامه في هذه الجنان وكذا نهايته !

---

(1) الواقعة الآيتان 23,22

(2) النبأ من الآية 31 إلى الآية 36 .

وهذا هو الترغيب الذي هو ركن ركين في سور القرآن وآياته!

ورغم هذا الجمال لنساء الجنة كان الافتتان بنساء الدنيا كأسوأ ما يكون الافتتان، وراح كثير من الناس يتحرك للسقوط في فتنة النساء فما خرج منها أبداً!

فهذا وقف حياته كلها لامرأة قد زين له الشيطان جمالها، وهذا يتوجع كل توجع، وذاك قد شرد منه عقله فما ورد إليه قط!

وحمل لواء هذا الشطط كثير من الشعراء، وبالغوا في ذلك وتجاوزوا:

فهذا مجنون ليلى يتعدى كل الحدود:

خليليّ إن بانوا [1] بليلى فقربا ... لي النعش والأكفان واسْتغفرا ليا

وإني لأستغشي [2] وما بي نعسة ... لعل خيالاً منك يلقى خياليا

أحب من الأسماء ما وافق اسمها ... وشابهه أو كان منه مدانيا

وإني إذا صليتُ يممت [3] نحوها ... بوجهي وإن كان المصلى ورائيا

أصلي فما أدرى إذا ما ذكرتها ... اثنتين صليتُ الضحى أم ثمانيا

وذاك يتلهف أيما تلهُّف، ويشكو مرَّ الشكوى، ويحزن على الهجران حزناً أشد من الخنساء على صخر، غير أنه لا يشطُّ شطط المجنون قبله:

لَهْفي على دعد وما حفلتْ ... بالاً بحرّ تلهفي دعد

بيضاء قد لبس الأديمُ بهاء ... ءَ الحسن فهو لجلدها جلدُ

فالوجهُ مثلُ الصبح مبيض ... والشعرُ مثلُ الليل مسودُ

---

(1) بانوا: بعدوا.

(2) أستغشي: أتكلف النوم.

(3) يممتْ: قصدت وتوجهت.

ضـــدان لما اجـــتمعا حســـنا	والضـــدُّ يظـــهر حسنه الضدُّ
إن لـــم يكن وَصْـــل لديـك لنا	يشفى الصـــبابةَ فليكـن وعـــدُ
قد كان أوْرَقَ وصـــلكم زمنـــاً	فذوى الوصـــالُ وأورق الصـدُّ
للـــه أشـــواقى إذا نزحـتْ	دار بنا وطـــواكُمُ البعـــــدُ
إنْ تُتْهِـــمى فتِهـــامةٌ وطـــنى	أو تنجدى يكن الهـوى نَجْـــدُ
وإذا المحبُّ شكا الصـدودَ ولـــم	يُعْطَـــفْ عليـه فقتـــلُهُ عَمْـــدُ

ولو أنهم التفتوا إلى ماخصَّ الله به المؤمن من الحور العين، أو دققوا النظر فى صفاتهن كما جاءت فى القرآن، أو تعلقوا بجمالهن البالغ وحُسنهن الباهر . .

لو أنهم فعلوا لركعوا وسجدوا وما هلكوا . . فرب أكلة تمنع أكلات، ورب فرحة تعود ترحة . . ولكنهم آثروا نساء الدنيا على نساء الجنة، فكانوا كمن يبنى قصراً ويهدم مصراً!

وليس الجمال فى الجنة مقصوراً على الحور العين، فهناك جمال أخر؛ إنه جمال الغلمان وهم ينتشرون فى الجنة، تراهم فى سن واحدة، يدورون على الصالحين، يخدمون لا يكلون . .

فإذا نظرت إليهم وهم منتشرون خلتهم لؤلؤاً قد تفرق بين أرجاء الجنة:

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾(1).

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾(2).

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾(3).

(1) الطور آية 24.
(2) الواقعة الآيات 19,18,17
(3) الإنسان آية 19.

وأطلقْ خيالك الآن، واسرح بفكرك بعيداً، وتأملْ هذه اللوحة الجميلة؛ لوحة هؤلاء الغلمان، وقد بلغ بهم الحسن مبلغاً بعيداً، ونال منهم البهاء منالاً عظيماً، فصاروا إن انتشروا في الجنة حسبتهم لؤلؤاً منثوراً، فكانوا في صفاء بالغ وجمال خارق، فما إخالك مفتوناً بصورة افتتانك باللؤلؤ حين ينتشر أمامك ويتفرق هنا وهناك!

ويحرص القرآن على عنصر الجمال في لباس أهل الجنة، وينصُّ كثيراً على أنه حرير:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ۝ أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾[1].

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾[2].

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾[3]

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ۝ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾[4].

﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾[5].

---

(1) الكهف الآيتان 31,30.
(2) الحج آية 23.
(3) فاطر آية 33.
(4) الدخان الآيات 53,52,51.
(5) الإنسان آية 21.

فاللباس هنا من حرير، والحرير دون غيره من أنواع الثياب.

ولون اللباس أخضر ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ والسندس مارقَّ من الحرير، والإستبرق ما غلظ منه.

وفوق ذلك ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ أو ﴿مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ أو ﴿أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾.

فهذه أساور توضع في أيديهم للزينة؛ تارة من ذهب، وتارة من فضة، وتارة من لؤلؤ، أو جميعها مرة واحدة!

ولك أن تتخيل هذا المؤمن وهو يرفل وقد تبختر، عليه تلك الثياب الخضر من رقيق الحرير وغليظه، وقد تزين بأساور الذهب والفضة واللؤلؤ!

ويعجبك قوله ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾؛ ليضع يدك على الجمال المقصود، وأن هناك طبقات من الثياب يلبسونها، إلا أن الثياب الفاخرة الجميلة هي التي تعلوهم وتظهر عليهم!

إنه جمال الحرير الأخضر، وبهاء الأساور المتعددة، حين يريد الله لعبده في الجنة كل زينة، وحين يريد له كل إكرام!

والجنات دائماً تجرى من تحتها الأنهار، وصار ذلك الوصف لازمةً في القرآن الكريم.

فما إن تقرأ عن جنة الآخرة إلا والأنهار تجري من تحتها.. هكذا ارتبطت، وهكذا أرادها الله سبحانه!

وأنْ يحرص القرآن على ذكر هذا الوصف للجنات دلالة على احتفاله بجمالها وبهائها!

فلستَ واجداً حدائق وبساتين في هذه الدنيا ذات بهجة إلا والماء الجاري هو الفاتن الآسر!

والأنهار في الجنة تجري، ولم يختر القرآن لفظاً سوى «تجري» ولم يعدل به شبيهاً، بل أبقى عليه وزاد من تكراره كل آن!

إنه لفظ شجي الإيقاع، كله حركة وسريان؛ فهي تجري دون توقف، وهي تتدفق دون ركود، وهي تنساح في غير أخدود، وهي في الأخير تجري من تحت أشجارها وقصورها، فهناك أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى!

إنها تجري في جنات ذات أفنان وظلال، وذات فاكهة ونخل ورمان، وذات قصور وغرف من فوقها غرف مبنية مزخرفة!

هذا هو الجمال حقاً، وهذه هي البهجة والزينة، وهذا هو النعيم الذي ينتظر المؤمن في أخراه.

غير أن اللافت في القرآن ارتباط هذه الجنات بالمتقين دون سواهم:

﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وِظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾[1].

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾[2].

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾[3].

﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ..﴾[4].

﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ...﴾[5].

---

(1) الرعد آية: 35.
(2) الحجر آية: 45.
(3) مريم آية: 63.
(4) ص الآيتان: 50,49.
(5) الزمر آية: 20.

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ .. ﴾[1].

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾[2].

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾[3].

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴾[4].

﴿إن المتقين في جنات ونهر ﴾[5].

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾[6].

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا .. ﴾[7].

وهذا التلازم بين الجنة والذين اتقوا حقيق بالتأمل خليق بالتدبر.

فالتقوى أعلى درجات الإيمان، وصاحبها هو أقرب العباد وإلى خالقه وبارئه، وقلبه هو أنقى القلوب وأصفاها، ونفسه هى النفس المطمئنة التي يُدخلها الله جنته العالية.

إن هؤلاء المتقين هم أصحاب الجنة، وهم الذين يستحقونها، وهم أولى الناس بالتمتع بجمالها وبهائها!!

---

(1) الدخان الآيتان : 52,51.
(2) محمد الآية :15.
(3) الذاريات آية 15.
(4) الطور آية 17.
(5) القمر آية 54.
(6) المرسلات آية 41.
(7) النبأ الآيتان 32,31.

﴿وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾

لوحات عديدة يعرضها القرآن أمام الناظرين، تصور جمال السماء وزينتها.

ولكن من بينها لوحة أشد تأثيراً، وأعمق جمالاً، كانت هناك في هذه السورة:

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾(1).

هذه هي السماء معروضة.. وها هو بصرك الآن حديد!

مُدْ عنقك طويلاً.. حاولْ أن تمعن النظر.. أن تدقق.. أن تجمع شتات فكرك..

خُذْ راحتك في النظر.. لا تستعجل النتيجة.. ولا تخجل من التكرار..

لا يفوتك موضع.. بل قلّب بصرك في كل الأركان..

لا تحكم لأول مرة.. بل تَعَمَّقْ وتَأَكَّدْ مرات ومرات....

افرك الآن عينيك، وافتحهما عن آخرهما، وحاولْ دونما كلل أو ملال..

كيف رأيت السماء؟! وكيف انقلب إليك بصرك؟!

لقد انقلب ذليلاً وهو كليل متعب، بعد أن رأى الكمال والجمال!

رأى الكمال في خلق هذه السماء.. فرغم رحابتها لا فطور فيها ولا شقوق.. ورغم فخامتها لا نقص فيها ولا عيوب!

ورأى الجمال كذلك.. فهذه هي النجوم تتناثر على صفحتها، تلتمع بالنور والبهاء!

---

(1) الملك الآيات 5،4،3.

ارتق إلى مكان عل، أو كن فى أرض خلاء . . وانظر ليلاً إلى هذه السماء، وتأملْ هذه المصابيح . . كيف هى متضامّة تارة، ومتفرقة تارات أخرى؟! وكيف هى خادعة فى سطوعها متقلبة فى ضيائها؟! لا تكاد عينك تستقر على واحدة منها، ولا تقدر على ملاحقة سطوعها أو تحديد رفيقاتها!

اجمعْ بصرك الآن فى رقعة واحدة، وحاولْ أن تعد مصابيحها أو تتابع ضياءها!

لن تستطيع شيئاً، ولن تقدر على مغالبتها، ولن تصل إلى شىء سوى شىء واحد؛ هو كمالها وجمالها!

ويبهرك وصف النجوم بالمصابيح . . فالسماء بناء، وهى كالبيت الذى إن حل عليه الظلام احتاج إلى مصباح يُضيئه أو سراج يُنيره!

غير أن بناء السماء قد انتشرت فيه المصابيح التى تُضىء فى الليل، قد ركَّبها الله وأشعلها، فأضاءت أركان البناء وزواياه!

إنه وصف معجز . . وصف النجوم بالمصابيح . . وهو وصف كله تجديد واعتبار . .

فحين تُركِّبُ مصباحَ بيتك وتعلقه، وحين تُضىء سراجك وتشعله . . حينها يكون الليل . . وحينها تكون السماء حيالك، فانظر إليها وقد رُكِّبت مصابيحها، لا تحتاج إلى أحد منا فى إشعالها؛ لأن أيدينا لا تطالها، ولأن الله هناك . . يتولى بنفسه إضاءتها كُل ظلام!

ويأخذك إلى الإعجاب تشبيه الشمس بالسراج الوهاج:

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً (١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَآءً ثَجَّاجاً (١٤) لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً (١٥) وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافاً (١٦)﴾[1].

(1) النبأ من الآية 12 إلى الآية16 .

فالسموات بناء، قد أحكم الله خلقه وأبدع صنعه، وهي كذلك سقف للأرض:

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾(1).

وما كان للأرض ولها هذا السقف العظيم أن تبقى دون سراج يضيء أركانها!

فهذه مصابيح تُشعل حين يأتي الليل، وهذا سراج يضاء حين يأتي النهار!

إنه بيت الكون الكبير.. يتولى الله إضاءة سراجه وإشعال مصابيحه، بلا تدخل من أحد، وبلا توقيف أو تعطيل!

ويظل المرء يتحرك داخل هذا البيت الكبير.. يتحرك تحت ضوء هذا السراج الوهاج.. وهو ضوء شديد وضَّاح، يتناسب وصخب النهار..

حتى إذا أقبل الليل، وحل الظلام.. أنار الله قصر السماء، وأشعل مصابيحها!

إنه بيت ضخم، ومع ذلك ترى في زواياه كل عناصر الزينة والجمال!

غير أن فقراء الشعور ويتامى الإحساس لا يلتفتون إلى هذا الحُسن وذاك البهاء!

تخلصْ من أسر العادة، واخلعْ عنك رداء الغفلة، وفك قيود الحبس والانغلاق!

ارتَدْ الآن ـ وقد تخففت من الأثقال ـ آفاق الآفاق، وأطلقْ بصرك يجوب هذه السموات، وارجعْ إلى كل مظنة من مظان التأمل والاعتبار..

واستأثرْ بجمال هذه المصابيح حين تُضاء، وبهاء هذه الشمس حين تسطع، وخُذْ لحظتك هذه كأنها قد وُلدت الآن، ثم انشدْ ترانيم الإعجاب، واقرأ تراتيل الحُسن والجمال.. حينها ترى الشمس ترنيمة كبرى، والقمر ترتيلة عظمى.. وترى هذه المصابيح على صفحة السماء كأمثال اللؤلؤ المنثور!

---

(1) الأنبياء آية 32.

ولما كانت الشمس سراجاً وهاجاً كان الرسول ـ ﷺ ـ سراجاً ولكنْ منيراً :

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾[1] .

بيد أن الشمس والقمر متلازمان :

فهما يجرِيان متعاقبين؛ هذا يُسلّم لذاك، وهذا يتلو صاحبه بحساب :

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾[2] .

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾[3] .

وكانت هي ضياءً ليناسب ضجيج النهار وصخبه، وكان هو نوراً ليناسب هدوء الليل وسكنه :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[4] .

وهما من أكثر الأشياد تكراراً في القرآن :

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[5] .

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾[6] .

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾[7] .

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[8].

(1) الأحزاب الآيتان 46,45 .
(2) الرحمن آية 5 .
(3) الشمس الآيتان 2.1 .
(4) يونس آية 5 .
(5) الأعراف آية 54
(6) الرعد آية 2 .
(7) إبراهيم آية 23 .
(8) الأنبياء آية 33

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾[1].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[2].

والآيات في ذلك تترى، وهي في كل أمورها تجمع منظومة الجمال: الشمس والقمر والليل والنهار.

فهذه الأربعة نسق واحد ولحمة واحدة؛ فلا يستغني الواحد منها عن الآخر!

والجمال فيها أصيل وحقيق:

فهذا الليل وذاك النهار وجهان لجمال واحد.. فأي نفور يُخرجه المرءُ حين يحيى نهاراً بلا ليل، وأية وحشة تلفه حين يعمه ليل بلا نهار:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[3].

يبهرك هذا الإشراق، ويفتنك ذلك الغروب.. وتعجبك الشمس وضحاها، ويسحرك القمر إذا اتسق!

ارقبْ لحظة الإشراق ومثلها لحظة الغروب، وشاهد الكون وهو يرتدي ثوباً ويخلع آخر.. شاهدْه وهو يستقبل نهاراً ويودع ليلاً، أو يودع نهاراً ويستقبل ليلاً.. في تسليم هادئ واستلام لطيف!

تأملْ هذه اللحظة الآسرة، وانهلْ منها ما شئت من روعة وبهاء، وارتشف من رحيقها الفواح وشذاها الفاتن!

لا تفوتك صورة الشمس أثناء الغروب، وتابعْ لونها وهو يتبدل وشكلها وهو يتغير..

تابعْ قرصها وهو ينزوي.. وهو في انزوائه يكبر في عينيك ويجمل..

(1) الفرقان الآيتان 62,61. (2) فصلت آية 37.. (3) القصص الآيات 73,72,71.

كأنها تنزل بيتاً لها هناك . . كأنها تهبط وتهبط . . كأنها تنزل من عليائها شيئاً فشيئاً . .

حينها تنظر حواليك والكون ناعس حالم، كأنما يشارك لحظة الإعجاز تلك، وكأنما يشهد الفراق الدائم والوداع الأسيف!

في هذا الوقت المهيب تشعر كأنما الشمس ذاهبة، ولكن إلى أين؟!

هي ذاهبة الآن إلى ربها . . إلى خالقها . . هنالك تسجد!

نعم . . تسجد للذي خلق هذا الجمال، وللذي بيده ملكوت الأرض والسماء!

هنا تشعر بالخشوع، وتشعر بالجلال . . هنا تسبح بحمد ربك قبل هذا الغروب وقبل الإشراق:

﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا . . .﴾(1).

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾(2).

وهي حين تغيب عنا في خشوع، تشرق علينا في هدوء . .

فيظل الصباح يلج إلينا في رويَّة واتئاد، ويتسرب رويداً رويداً دون أن نشعر بقادم أو نتفزع بفجأة الضياء!

ويدلف ضوء الشمس في خيوط دقيقة جدّ دقيقة، فيتنفس الصبح أنفاسه الأولى في بطء وأناة، ويخرج علينا في أنس واسترواح!

وهذا اللطف في دخول الليل أو النهار يعبر عنه القرآن بلفظ كله دقة وإمعان، فلا تجد أبلغ منه في لغة العرب ولا أفصح . .

فهو سبحانه «يغشي» الليلَ النهار . . فحين يغشاك الشيء يكون اللطف واللين والسكينة كذلك:

---

(1) طه آية 130.

(2) ق آية 39.

﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾(1).

﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾(2).

ومثله، «يولج»، ففيه نفس اللطف وذات السكينة:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾(3).

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾(4).

وهذا من رحمة الله ولطفه.. فتخيلْ أن تخرج علينا الشمس صباحاً بقوة ضحاها فجأة بلا تدرج أو إمهال!

وتصور حال الناس إن ظلّت ساطعة لتختفي بلا غروب أو أصيل!

لكنها خطوات متناسقة ومراحل متتالية مع مراعاة عنصري الجمال والارتياح..

هذا إشراق يتبعه ضحى، وذاك زوال يتلوه غروب.. وهذا أول الليل تلحقه عتمة، وذاك إظلام وراءه إشراق.. تداول بعد تداول، وخطوة إثر خطوة!

إن هذا التنوع يخلق بهاءً لا نحسب فوقه فوقاً، ويُنشئ جمالاً أي جمال!

غير أن الليل له من الزينة خصوصية.. حيث المصابيح تُضيء السماء، وحيث النجوم تلتمع بالحسن والبهاء..

وحيث القمر.. اسم الجمال، ونبع الزينة والافتتان!

فما من أحد إلا وفتن بحسنه وبهائه، وما من قلب ـ مهما قسا ـ إلا ورقّ لزينته وجماله!

وصار القمر بروعته قبلة المرهفين إذا تأملوا، ومدار الشعراء إذا وصفوا.

وغدا رمز الجمال الأول، ومناط الشعور الألطف.. فهو حين يأخذ مكانه

(1) الأعراف آية 54.
(2) الرعد آية 3.
(3) الحج آية 61.
(4) الحديد آية 6.

هنالك بين النجوم، وحين ننفض أيدينا من غبار الرتابة والاعتياد، فنتأمل ذاك البدر بجديد المشاعر ووليد الأحاسيس . .

حينها نتأمله ـ وهو في قمته السامقة وقد أحاطت به النجوم ـ في صورة لا نقوى على الصمود أمام فتنتها وزينتها، وفي لوحة لا نصبر على ملاحقة إبداعها وروعتها . .

حينها يعزف القمر ألحانه الشجية على أوتار القلوب المتلهفة، فتخفق بأقوى نبضات الطمأنينة والارتياح . .

يرسل ألحانه على هذا الكون الرحيب الوسيع . . في إيقاع رتيب، وخطو وئيد . . فتتلقى منه الآذان على قدر الشعور والإحساس!

تخلصْ يوماً من رتابة الأحداث، وارتقبْ يوم تأتي السماء ببدر التمام . . واصحبْ معك قلباً نابضاً وبالاً رائقاً . . واجلسْ هنالك . . خاطبْه . . ناجه . . اقتربْ منه رويداً رويداً . .

لا تحفل بمرور الوقت، ولا تُنصت لنداء الهم . . ثم قلّب النظر، واجمعْ عليك العاطفة والفكر . .

هنالك تأخذ مكانك تحت القمر، فيحيط بك البهاء بعضه وكله، ويشملك الحُسن أوله وآخره . . وترى لوحة كأنها الأولى حين عُرضت عليك، وهي كل يوم أمام الناظرين!

تأملْ في وجهه وصفحته، واستلذ بطلعته وهلّته، واستأنسْ بجلسته وصحبته، واستمع إلى لحنه . . فهو لحن متناسق أيما تناسق، وندي كل نَداوة!

لا تجعل مشاغل هذه الدنيا تُنسيك هذه اللوحة الجميلة التي تُعرض عليك كل ليل، ولا تجعل قدم العادة ترسم على بصرك غشاوة . .

ارفعْ هذه الغشاوة . . ترى القمر . . ترى الجمال عينه!

وليست زينة السماء في قمرها وشمسها وحسب، فهناك لوحة أخرى على

الجانب المقابل تنبض بالروي والطراوة، وترتسم على صفحتها خيوط من السحر والبهاء:

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

إنها لوحة رائعة، لا تحتاج إلى بيان أو تبيين..

فهذه السماء وقد توارت شمسها.. وها هو ربها يبسط قطعاً من السحاب هنا وهناك..

إنه ملكه سبحانه.. وهؤلاء عبيده تحته فوق أرضه.. تتطاول أعناقهم.. ترتفع إليه أكفهم.. يتطلعون إلى آثار رحمته..

وهو سبحانه هناك يُصدر أمره للرياح أن تتحرك، فتسوق قطع السحاب أمامها..

هنا يوزعه سبحانه كيف يشاء، ويضعه على صفحة السماء كيف يشاء..

لتذهبْ هذه السحب إلى هؤلاء، ولا تذهب إلى هؤلاء.. لينزلْ غيثها على هذه الأرض، ولا ينزل هناك.. ليرتو أهل هذا البلد، ولا ينعم به سائر البلاد..

يجعله سبحانه كسفاً.. فهذه القطعة هنا، وتلك هناك.. يتصرف في ملكه كيف يشاء، ويمنح فضله من يشاء!

ويتأمل المرء في السماء حين تُبسط على صفحتها هذه السحب، ويمعن النظر، ثم يأخذه الجلال بعيداً جدّ بعيد!

ينظر إلى علٍ، فإذا قطع السحاب هناك، وإذا الأرض وأهلها في هلاك دونها،

(1) الروم الآيات 50,49,48.

وإذا الجميع مهدد بالفناء إن لم تنزل هذه الرحمة المهداة، وتلك النعمة الكبرى!

وينظر كذلك إلى جمال السحاب وهو مبسوط في السماء، ويعجبه سوق الرياح إياه، وكيف يتسحب في مشيته ويتهادى في حركته؟!

هكذا كانت السماء.. كلها زينة وجمال، وكلها فتنة وبهاء.

وقد نصَّ القرآن على هذه الزينة كثيراً، وأنها معروضة للناظرين:

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾[1].

﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ..﴾[2].

﴿ .. وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾[3].

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾[4].

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾[5].

ولفظ «الزينة» هو أنسب الألفاظ للتعبير عن هذا الجمال المنتشر هنا وهناك.

وقد زين الله سماءه للناظرين.. للذين يبحثون عن الجمال.. للذين يفقهون فيه ويحفلون..

فهناك ينظرون إلى القمر.. إلى المصابيح.. إلى السراج الوَّهاج.. إلى السحاب.. إلى الزينة جميعها!

فالقصد من هذه الزينة حين وضعها الله في السماء أن يستمتع بها الناظرون، وأن يستلذوا بما فيها من حُسن وجمال.. وأن يتأملوا ويتدبروا، وأن يتعرفوا على خالقهم البارئ المصور.

---

(1) الحجر آية 16.
(2) الصافات آية 6.
(3) فصلت آية 12.
(4) ق آية 6.
(5) الملك آية 5.

وإخالك الآن رافعاً بصرك إلى هذه الزينة . . إلى هذه اللوحة الساحرة . .

لا تقطع النظر . . وارجع البصر كرتين . . ينقلب إليك خاسئاً وهو حسير!

وكُن على موعد دائماً مع هذه الزينة، فهي تصف الجمال، وتحكي عن حسنه وبهائه!

﴿ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾

أراد القرآن أن يتحدث عن جمال هذه الأرض التي نحيا فوقها . .

أراد فلم يجد أبهى من صورتها حين ينزل عليها الماء من السماء . .

حينها تهتز اهتزازاً عجيباً، فتصبح مخضرة :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾(1) .

وحتى يعبر عن جمالها آنئذ كان لفظ «بهيج» هو الأنسب :

﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾(2) .

﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾(3) .

غير أن القرآن أراد أن يلفت الأنظار إلى حدائق هذه الأرض وجناتها حين ينزل الماء :

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾(4) .

﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾(5) .

فهذه جنات ملتفة الأغصان وارفة الظلال، وتلك حدائق كثيرة الأشجار تعج بأطايب الفاكهة وألذ الثمار !

---

(1) الحج آية 63.
(2) الحج آية 5.
(3) ق آية 7.
(4) النبأ الآيات 16،15،14.
(5) عبس من الآية 24 إلى الآية32 .

صورة جميلة احتاجت إلى تفصيل في موضع آخر، فكانت هناك جنات النخيل الباسقة تقابلها جنات الأعناب المتسلقة، مع إدخال عنصر جديد إلى هذه اللوحة الفاتنة؛ فكانت العيون قد فجَّرها الله خلالها، وكانت الينابيع قد امتلأت ماءً عذباً، وكانت الثمار الطيبة يأكلها الإنسان كل وقت وآن:

﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾(1).

وفي معرض إثبات الوحدانية يأخذنا القرآن إلى جمال هذه الحدائق، والنصّ على بهجتها وزينتها:

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾(2).

حدائق ذات بهجة.. تبهج النفس، وتسر العين، وتبعث على الاسترواح، وتدعو إلى السكينة والاستئناس!

حدائق ذات بهجة.. تتفيأ ظلالها، وتنعم بثمارها، وتُفتن بألوانها وأشكالها، وترتشف من رحيقها الفواح!

حدائق ذات بهجة.. فهي صاحبة البهجة، وموطن الزينة، وجماع الحسن، وقبلة الجمال!

فهل ترى أجمل من حديقة ذات أفنان، وظلال، مكتظة بأطايب الثمار، تجري خلالها العيون والأنهار، تأخذك إلى كل فتنة فاتنة، وتسحرك بكل عناصر البهاء؟!

ويضرب القرآن مثلاً رجلين، كان لأحدهما جنتان غاية في الروعة والجمال.

---

(1) يس الآيات 35,34,33.
(2) النمل آية 60.

فهما من أعناب، قد أحاطهما الله بالنخل الباسقات، وفي وسطهما زرع ونهر:

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا﴾[1].

وحين يصف سبأ كانت الجنتان عن يمين وشمال:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾[2].

وفي البساتين عن يمين صاحبها وشماله جمال وزينة وإنعام!

وحين يصور زينة الحياة الدنيا ومتاعها الزائل لا يجد سوى الماء النازل من السماء، يختلط به نبات الأرض، فيأكل الناس والأنعام من ثمار يانعة وكلأ خصيب، فتأخذ الأرض حينها زخرفها وبهجتها، وتتزين بكل جمال وبهاء:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3].

وعلى وجه هذه الأرض التي أخذت زخرفها وازينت أنشأ الله جنات تنتشر هنا وهناك، معروشات قد حُملت على عيدان، وغير معروشات:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[4].

فمن الجمال أن ترى هذه الجنات وقد عرش الناس بعضها وأخرى لم تُعرش..

---

(1) الكهف الآيتان 33,32.
(2) سبأ آية 15.
(3) يونس آية 24.
(4) الأنعام آية 141.

مع النخل قد علت وأثمرت، والزرع قد تعدد شكله وتنوع لونه واختلف حجمه . .

وهناك الزيتون والرمان متشابه في الشكل وغير متشابه في الطعم!

ومن العجب العاجب أن يذكر هنا جنات معروشات وغير معروشات، قد انتصب بعضها على ما يحملها وقد بقي الآخر قريباً من وجه الأرض غير مرفوع . . ثم يذكر في الآية بعدها الأنعام منها حمولة قد انتصب يحمل الناس والمتاع كالإبل، ومنها ما هو فرش صغار قد اقتربت من وجه الأرض لا يُحمل عليها شيء . .

وفي الآية الأولى ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾، وفي الأخرى ﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ . . تقابل بارع، وتناسق بديع، واتساق يمنح الصورة كثيراً من الروعة والبهاء:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١) وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[1] .

ويرسم لنا القرآن لوحة جميلة عن الأرض حين وضعها الله للناس:

﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[2] .

فهذه هي الأرض . . قد بسطها الله لعباده . . فيها فاكهة مختلفة الألوان والثمار، وفيها الحب بأنواعه، وفيها ما تُشم رائحته ويطيب عطره ويفوح شذاه!

بيد أنه يخص النخل، ويصور لنا أبهى مراحلها، حين تكون ذات أكمام،

---

(1) الأنعام الآيتان 142,141 .
(2) الرحمن من الآية 10 إلى الآية 13 .

حيث أوعية الطلع، وحيث العناقيد في زينةٍ لا نقوى على الصمود أمام جمالها كثيراً!

لقد كانت الأرض جميلة في جناتها. . فاتنة في حدائقها. . بهية في خضرتها وزروعها. . آسرة حين ينزل الماء فتهتز بعد خشوعها، وتنبت ساعتئذٍ من كل زوج بهيج!

﴿ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾

عـتـاب يفـيض وداً، ونداء كله لطف أيمـا لطف . . نزل هنالك من الملأ الأعلى . . من الذات العلية، حيث العرش العظيم، وحيث الذى بيده ملكوت كل شيء!

نزل إلى ذلك المخلوق الضعيف . . إلى ذلك الذى لم يكن شيئاً مذكوراً . . فكان هذا التودد الفريد، وذاك التقرب الخاص جداً:

﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦ الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِى أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾(1).

وأرى الآن الذات العلية، وقد أخذت ذاك الإنسان جانباً تخاطبه . . تعاتبه . . تلاطفه كأحسن ما يكون اللطف . . تعدد عليه النعم واحدةً واحدة . .

وأراه قد استحيى الآن، وأخاله قد خجل من نفسه، وأجده قد تصبب جبينه عرقاً، والذات المقدسة تُزيده رحمة، وتمده باللطف المطلق، والتودد العميم!

أرى هذه الصورة دائماً حين أقرأ هذا الاستفهام الفائض حبّاً ووداً:

﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾؟!

وأيضاً أراها مفردة وليست جَمْعاً . . فالكبير المتعال يناجى الإنسان وحده، فهو سبحانه قد أراده دون الناس أو حتى الذين آمنوا!

هو لا يريد ـ ساعتئذ ـ المؤمنين وحدهم، ولا يريد جَمْع الناس الغفير . . بل يريد الإنسان على انفراد . . فهو يحبه؛ لأنه صنعته التى صنعها بيده . . وهو الذى نفخ فيه من روحه . . يرضى له الهدى، ويكره له الضلال . . يحب أن يعاتبه، وأن يلاطفه اللطف الشامل، فكانت الألفاظ شفيفة، وكانت الكلمات تفيض وداً

(1) الانفطار الآيات 8,7,6.

فهو ربك الكريم . . فما الذي حملك على عصيانه؟! أخدعك حلمه أم غرك كرمه؟!

وهو الذى أوجدك من العدم، فسوَّاك فكنت سوياً، وعَدَلك فكنت معتدلاً في أحسن صورة وأجمل هيئة!

فأي تكريم نزل على هذا الإنسان؟ وأي احتفاء قد أحاطه؟ وأي تشريف قد عمَّه حين تتولى يد الرب الكريم خِلقة هذا المخلوق المسمى الإنسان؟!

وحين تتولى اليد الكريمة هذه الصنعةَ فأي جمال تكون عليه؟ وأي بهاء تلبسه؟وأي صورة تكون عليها؟!

لقد كانت صورتك أيها الإنسان بهية كل البهاء، وكانت حَسَنَة كل الحُسن، وكانت مليحة كأحسن ما تكون الملاحة، وكانت ـ ومازالت ـ جميلة أيما جمال!!!

أي صورة هذه التي جعلت وجه الإنسان بهذا القبول الآسر، وذاك الاتساق الباهر؟!

فالعينان معجزة الجمال في الشكل والحجم واللون وحتى المكان!

أكنتَ مقبولاً لو وُضعت مكان الأنف أو الفم فهبطتا، أو مكان الجبهة أو الناصية فصعدتا . . أو تدحرجتا يمنة ويسرة . . أو تلاصقتا . . أو تباعدتا . . أو خَلَق اللهُ لك واحدةً دون اثنتين، أو لم يجعل لهما حاجبين . . أو غارتا أو برزتا . . أكنتَ مقبولاً آنئذ أم كنتَ خلقاً آخر؟!

إنه المكان الوحيد المناسب، وإنها الهيئة الفريدة التي لا بديل لها، وإنه الشكل الذي يُظهر المحاسن دون غيره!

وقسْ على ذلك بقية الحواس . . ثم تأمل هذا الوجه وما حفل به من تناسق محكم واتساق بديع . .

قد تقابل طفلاً صغيراً، أو فتى يافعاً، أو صبية ذات بهاء . . فيأخذك جمالُ الوجه أخذاً، ويبهرك حسنُه إبهاراً . . قد أسَرَك ملاحتُه، وجذبك نضارتُه . . فأنت

فى فتنة قد ملكتْك، وفى إعجاب قد أخذ على نفسك كل أقطارها، فتخرج من فمك هذه الجملة العفوية : سبحان الله!

لقد بلغ الحُسن حداً جعل من النظر إلى بعض الوجوه إثماً وخطيئة، أو قُلْ: كل الوجوه:

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾(1).

فى أى صورة ما شاء ركبك تركيباً عجيباً كله إعجاز :

فقد خَلق الدواب. . منهم من يمشى على بطنه، ومنهم من يمشى على رجلين، ومنهم من يمشى على أربع. .

لم يجعلك تمشى على بطنك، ولو فعل ما كان أحد سائله لماذا خلقت بنى آدم على بطونهم؟. . أو يجعلك على أربع فلا تنتصب أو تستوى معتدلاً!

غير أنه اختار لك الرجلين، فكنت قائماً فى استواء لافت، واعتدال جاذب. . وكنتَ حينئذ عزيزاً لا ذليلاً، ومكرماً لا مهاناً!

واختار لك حجم الرأس ليناسب حجم الجسم، ويَدين تتناسق مع رجلين، فكان القدّ ممشوقاً، والقوام رشيقاً أى رشاقة!

فهى إذاً الصورة السوية التى اختارها الله، قد صنعها بيده، وركّبها بقدرته، فكانت جميلة فاتنة، وكانت آية فى الحُسن والبهاء!

وهو أيضاً التكرار الذى يطالعك فى القرآن حين يتصل الأمر بهذه الصورة البهية، وأنه صَوَّرنا فأحسن صُورنا :

(1) الأعراف آية 11.

* ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾(1).

* ﴿اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(2).

* ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾(3).

ومن أسمائه الحسنى: الخالق البارئ المصور.

أجل.. إنه المصور.. فهو الذى يصور، وهو الذى يخرج لنا الصورة؛ صورة الأشياء كلها فى هذا الكون الرحيب الوسيع.. وهو كذلك يتولى بنفسه العلية اختيار الشكل المناسب، واللون العاجب، والتناسق البديع!

ويتولى كذلك سبحانه تشكيل الصورة وتزيينها، فخرجت الصور ـ كل الصور ـ فى أحسن شكل، وأجمل هيئة، وخاصة صورة هذا الإنسان!

لقد قصد اللهُ الجمال والحُسن فى كل شىء خلقه:

﴿الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾(4).

غير أن الإنسان كان تصويره هناك.. فى الأرحام.. وكان الله سبحانه هو الذى يتولى إخراج صورته:

﴿هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(5).

لقد خرجت صورة الإنسان فى أحسن تقويم:

---

(1) الأعراف آية 11.
(2) غافر آية 64.
(3) التغابن آية 3.
(4) السجدة آية 7.
(5) آل عمران آية 6.

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[1].

في أحسن تقويم . . اللفظ معجز، والمعنى عميق . . فأقع دائماً في أسره، ويأخذني بعيداً ذاك التقويم . . فقد كان التقويم عبقرياً، وكانت الصورة في أحسن تعديل، وأجمل هيئة!

فليس بعد هذه الصورة الجميلة جمال، وليس بعد هذا الشكل المبدع إبداع!

فالصورة غير قابله للتعديل؛ لأنها الصورة المثلى، ولأنها الحُسن الأول والأخير!

لقد كانت في أحسن تقويم . . فلا تقدر قوى البشر جميعاً على تغييرها . . فإن حاولت ـ كما تحاول الآن ـ فتقوم بتصغير هذا العضو أو تكبير ذاك الآخر، فإن الصورة ـ مهما بدت لنا متناسقة ـ ستكون مسيخة باهتة، وستفقد تقويمها الأول، وحينها سيذهب الجمال . . هذا الجمال الذي لا ندرك كنهه أحياناً، ولا نقدرعلى معرفة أسراره أحايين أخرى!

---

(1) التين آية 4.

الفهرس